جامعة محمد خيضر بسكرة
كلية الآداب واللغات
قسم الأدب العربي

مذكرة ماستر

أدب عربي
دراسات أدبية
أدب قديم

رقم: ق24/ 2020م

إعداد الطالب:
صالحي الحاجة فطيمة

يوم:15/09/2020

الأبعاد النفسية ومظاهرها في قصائد ابن زيدون

لجنة المناقشة:

جميلة قرين	أ. مح أ	جامعة بسكرة	رئيسا
سليم كرام	أ. مح أ	جامعة بسكرة	مشرفا ومقررا
ربيعة بدري	أ. مح ب	جامعة بسكرة	مناقشا

السنة الجامعية:2019 - 2020

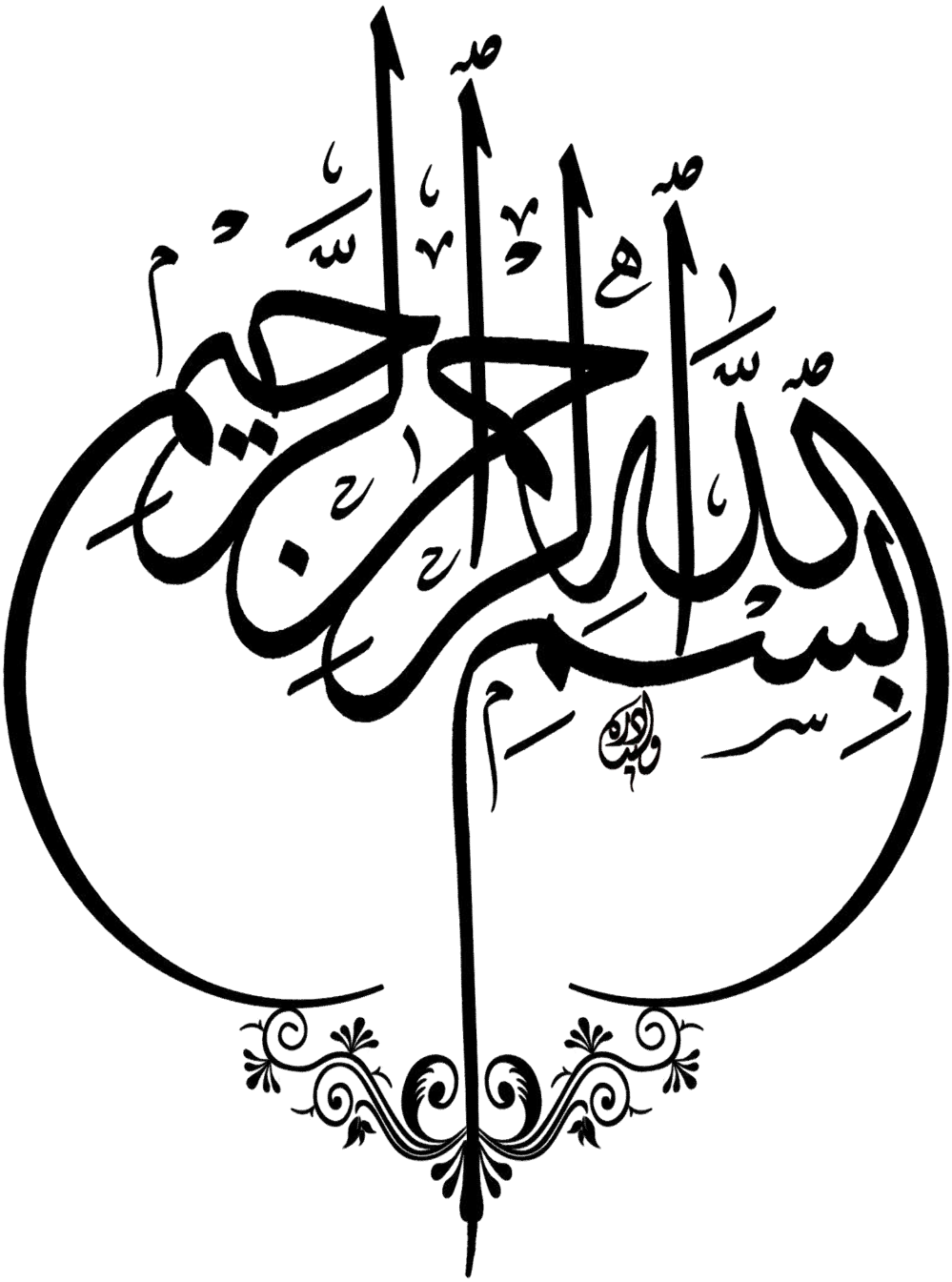
بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
{ لا يشكر الله من لا يشكر الناس}

وامتثالاً لقوله صلّى الله عليه وسلّم فإنّنا نشكر الله على عظيم منّه وعطائه وتوفيقه.

كما نتقدّم بوافر الشكر والعرفان للأستاذ المشرف الدكتور سليـم كرام على المجهودات المبذولة لتصويب الأخطاء، وسعة صبره ورحابة صدره، والله أدرى وأبصر وهو خير المجازين.

مقدمة

نرى الشعر بنية جاهزة نتلقاها من عند الشعراء بهيئة مستساغة براقة، نعجب بها وننبهر لفخامة معانيها وصلابة بنائها اللغوي، ولكن عادة ما يخفى عنا جانب الشعر المظلم، فالشعر كالقمر له جانب مضيء وآخر مظلم، كما أنه لم يخطر ببالنا أن نسأل عما فيه من أمور مخفية في نفسية الشاعر المبدعة، فلكل شاعر ما يحرض قريحته من أمور نفسية تأمر وجدانه بالشعر بالشعر، كذلك هو الشأن بالنسبة لبحتري الأندلس؛ أبو الوليد ابن زيدون، فما هي أهم النفسيات الفاعلة في الشعر عند الشعراء؟، و ما هي أهم الأبعاد النفسية التي يخفيها شعر ابن زيدون؟ وكيف استطاع أن يبلور مكبوتاته في صور شعرية أنيقة؟

وعليه جاء عنوان البحث موسوما ب "**الأبعاد النفسية ومظاهرها في قصائد ابن زيدون**"، واختياري لهذا الموضوع كان لعدة أسباب أهمها:

– استهواني التحليل النفسي باعتباره منهجا لتفسير الأفعال والتصرفات، وربطها بدوافع نفسية خفية أي انه يتطلب الابتعاد عن دلالة النص التي تكون غالبا العامل الوحيد في فهم النص.

– القراءة النفسية قراءة جادة لكنها صعبة نوعا ما ولذلك قليل من البحوث تهتم بها وهذا ما جعلني أخوض التحدي واحاول اثبات ذاتي في هذا المجال.

أما اختياري لتجربة الشاعر ابن زيدون فذلك تماشيا مع تخصص التكوين الذي ادرسه، إضافة إلى أن الشاعر ذو شخصية متزنة رزينة واعية وليس ميزاجيا قد تغير دوافعه النفسية مواقفه ومظهره النفسي في شعره.

للإجابة عن هذه التساؤلات اتبعنا خطة بحث كالتالي:

أما بالنسبة للمنهج فظاهر الدراسة يؤكد ضرورة اعتمادنا على المنهج النفسي التحليلي، وذلك من أجل التعرف على العوامل النفسية المساعدة في إنتاج نصوص

شاعرنا، وقد دفعتنا الضرورة إلى استخدام المنهج الوصفي والأسلوبي في مجال قراءة النماذج وتحليل مكامنها الدلالية وللوصول للهدف من هذا البحث، إرتأينا تقسيمه إلى فصلين بدأناه بمقدمة حاولنا أن تكون مستوفية للنقاط المنهجية ثمّ اتبعناها بمدخل يشرح أهم المصطلحات الواردة بغرض التعريف بها وتبسيطها، وقد ضمّ المفهوم اللغوي والاصطلاحي للفظة نفس، ثم تطرقنا أبرز العوامل النفسية الفاعلة في تقديم الشاعر لأشعاره، أولهما جاء لأهم في قصائد ابن زيدون، ثمّ بعد ذلك الفصل الأول خصّصناه لدراسة أهم الأبعاد والمظاهر النفسية الفاعلة في قصائد ابن زيدون جاء موسوما بجماليات البعد النفسي في قصائد ابن زيدون، وابتدأناه بدراسة شعر الحنين، ثمّ شعر الغزل العفيف، إضافة إلى المدح.

أما الفصل الثاني فجاء بعنوان "التشكيل الفني في شعر ابن زيدون ، الذي ارتأينا تقسيمه إلى قسمين أولا :الصورة الشعرية والذي يضم بدوره مظاهر التصوير الفني من تشبيه وكناية واستعارة، وثانيا: الإيقاع الموسيقي (خارجيا وداخليا) من خلال جزئيات الإيقاع كالوزن والروي والطباق والجناس والتصريع.

ثم أسدلنا ستار بحثنا هذا بخاتمة وقفنا فيها على أهم النّتائج التي توصلنا إليها بخصوص استنباط العوامل النفسية وإبراز دورها وحضورها في التشكيل الشعري العام لابن زيدون، وتليناها بقائمة للمصادر والمراجع التي اعتمدنا عليها في انجاز هذا العمل الأكاديمي، والتي كان من أهمها كتاب العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيرواني، وكتاب الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي لعبد القادر فيدوح، بالإضافة إلى الملاحق، وقد انتهجنا المنهج الوصفي بآلية التحليل في ضبطنا للأفكار وتسلسلها، ولعل أهم الصعوبات التي واجهتنا أثناء العمل على هذا البحث هي صعوبة التواصل مع الأستاذ المشرف والاستفادة من المرافق العلمية نتيجة الحجر المنزلي بسبب الجائحة العالمية، وهي أبرز العراقيل التي واجهت أصحاب المذكرات جميعهم

وفي الأخير نتوجه بالشكر للأستاذ الفاضل الدكتور سليم كرام الذي لم يبخل علينا بنصائحه وتوجيهاته القيمة التي جعلت العمل على ما هو عليه من جودة، الحمد لله الذي هو ولي التوفيق

وعلى الله قصد السبيل.

المدخل

أ ـ تعريف لفظة نفس لغة:

ب ـ اصطلاحا:

ج ـ أبرز العوامل النفسية الفاعلة في تقديم الشاعر لأشعاره:

تمهيد:

النص الإبداعي فضاء تتجمع في تشكيله عوالم متعددة؛ تأخذ منه بطرف يجعل الانتباه إليها عاملا هام في تشكيله، وتبقى النوازع النفسية عاملاً أساسياً في تحديد ملامح التجربة الإبداعية، إذ أنها تتدخل في شكل البناء الفني للنص سواء قصةً أم شعراً، وتعمل على صبغها بمنزع ذات صاحبها النفسي فرحا أو حزنا أو شوقا، أو حتى أسى واستصراخ، كما تتحكم النفسيات أيضا في ما نفعله ونتكلم عنه ونفهمه من الآخرين ونتوقعه.

وتصعب في كثير من الأحيان تحديد الذرائع والمسببات في الأعمال الأدبية الإبداعية الموزونة أو المنثورة، لأن نفسيات أصحابها تختلف من منظور قارئ إلى آخر، وهذا راجع لتأثير عديد التجارب والمحطات العالقة بشكل ما في اللاشعور، والتي يكون نتاجها أن تسفر عن تلك التجارب التعبيرية والإبداعية، وبواسطة الفن عموما والأدب خصوصا تستطيع هاته العوالق النفسية أن تطل من نوافذ الأعمال الإبداعية والتجارب الشعرية كذلك؛ لأن داخل كل شخص يجهله غيره ويدركه إلا الشخص نفسه، فلا يفهمه غيره إلا إذا عبر عنه ذلك بواسطة الفن الهادف.

ولهذا فإننا عندما نذكر مصطلح نفس تتبادر إلى أذهاننا معنى الذات أو الروح والنفسية الشعورية، التي تتأثر بالعوامل والمسببات الخارجية للانفعالات المتنوعة، وغموض النفس وتعدد المتاهات والمنعرجات يؤدي إلى الدهاليز العميقة المسماة في علم النفس الحديث باللاشعور، فيجعلنا المصطلح أمام انفتاح في تحديد مدلولها، والإحاطة بما تعنيه النفس حرفيا أو المفاهيم المتعددة للمصطلح الخاضع لعدة بحوث علمية عالمية متنوعة.

أ . تعريف لفظة نفس لغة: ورد في لسان العرب لابن منظور في مادة نفس «النفس الروح، والنفس في كلام العرب يجري على ضربين أحدهما قولك: خرجت نفس فلان: أي روحه»[1]؛ ومفاد القول أن الروح التي تكون في الجسد وتخرج منه بوفاته، وهذا ما جاء في المعجم الوسيط من «أن النفس هي الروح ويقال خرجت نفس فلان ويقال خرجت نفسه، وجاء بنفسه؛ مات»[2]، الضرب الأخر من معنى كلمة النفس هو«نحو قولك في نفس فلان أن يفعل كذا وكذا؛ أي في روعه»[3]، وهذا ما يعني أن الشخص يحاول أن يفعل ما تمليه عليه نفسه العميقة الخاصة به ذاته جملة الشيء وحقيقته، «تقول قتل فلان نفسه؛ أي أوقع الإهلاك بذاته كلها وذات الشيء وعينه، وجاء هو نفسه أو بنفسه (ج)؛ والجمع في ذلك أنفس ونفوس»[4]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وإذا النفوس زوجت﴾[(*)].

ومن خلال الاطلاع على معنى لفظة نفس في المعاجم وأمهات الكتب العربية الفصيحة، تبين لنا أن المعنى اللغوي المتداول بينها هو أن النفس هي الروح، وهي ما يريد به الإنسان أن يفعله في سريرته وما يخفيه في ذاته وقلبه؛ فهي ما يتعلق بجوهر الشيء والإنسان؛ أي بالأصل وذاته وما يصدر عن ذاته من تبعات تصف تلك الذات وتعبر عنها، وتمثلها.

ب/ اصطلاحا: لم يختلف مدلول لفظة النفس اصطلاحا عن المعنى اللغوي لها، فهي لا تخرج عن حيز الروح والذات من معان ترد في الأصل لها، حيث جاء في التعريفات للجرجاني أنها: «الجوهر البخاري اللطيف الحامل لقوة الحياة والحس والحركة

---

[1]. ابن منظور، لسان العرب، المجلد السادس، "مادة ن ف س"، ج5، دار صادر، بيروت، لبنان، ص 4502.

[2]. مجمع اللغة العربية، الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط1، 2003، ص 940.

[3]. ابن منظور، لسان العرب، ص4502.

[4]. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ص 940.

[(*)] سورة التكوير، الآية: 07.

الإرادية، وهي الروح الحيوانية، فهو جوهر مشرق للبدن، فعند الموت ينقطع ضوؤه عن ظاهر البدن وباطنه، وأما في وقت النوم فينقطع عن ظاهر البدن دون باطنه»[1].

وهذا التعريف يشمل معنا واحدا، وهو النفس بصفتها الذات البشرية بروحها أي؛ الروح والجسد، لذلك يستطرد الجرجاني في وصف الأنفس وتعداد أنواعها من مطمئنة ولوامة وخبيثة وغيرها من الأنفس البشرية وأصنافها، ومن ذلك قوله تعالى﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فأدخلي في عبادي وأدخلي جنتي﴾(*)، وقوله أيضا جل وعلا: ﴿ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾(**) وقوله أيضا تعالى:﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق﴾(***)، ويقول الشاعر أوس بن حجر[2]:

أيتها النفس أجملي جزعا إن الذي تحذرينه قد وقع

وقد خص الإنسان النفس بعلم مستقل اصطلح عليه بلفظ علم النفس؛ وهو مصطلح مركب من كلمتين يونانيتين: psychè وتعني بالإنجليزية soul وهي بالعربية الروح وlogos وتعني دراسة العلم، وفي الاصطلاح: «هو علم دراسة السلوك حيث أن في القرن السادس عشر كان معنى علم النفس العلم الذي يدرس الروح أو الذي يدرس العقل»[3]، وذلك للتمييز بين العلوم الفيزيولوجية والعلوم النفسية عن بعضها البعض.

فعلم النفس هو «العلم الذي يدرس الحياة النفسية، وما تتضمنه من أفكار ومشاعر وأحاسيس وميولات ورغبات وذكريات وانفعالات»[4] وغيرها، وهذه طبعا تحلل وتدرس

[1] علي بن محمد الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، تح: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، مصر، ص 234،235.

(*) سورة البلد، الآيات: 28 . 29 . 30 . 31.

(**) سورة القيامة، الآية: 02.

(***) سورة الإسراء، الآية: 23.

[2]. أوس بن حجر، الديوان، تح: محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، لبنان، ط 03، 1979، ص 26.

[3]. الشيخ سنان الساعدي/ https: / m .facebook .com//، ص 02

[4]. أحمد عزت راجح، أصول علم النفس، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط 07، 1928، ص 09.

بواسطة علم النفس في جانب مسبباتها ودوافع الشخص لوجودها، تبعا لما يتبادله مع بيئته من تأثر وتأثير، فهو إذن علم يبحث في « كل ما يفعله الإنسان ويقوله؛ أي كل ما يصدر عنه في سلوك حركي أو لفظي كتابة أو مشي أو أكل أو كلام»[1]، وهذا لا يتحقق سوى بتواصل الإنسان مع مجالات محيطه الخارجي والتي تشكل بدورها بيئته من أشخاص وأشياء، كما يشمل البحث في علم النفس «كل ما يصدر عن الإنسان من نشاط عقلي، كالإدراك والتذكر والتفكير والتعلم والابتكار»[2]؛ يعنى هذا العلم بما يدخل في مستوى النفس الإنسانية وما يختلجها من مضمرات.

فعلاقة الأدب بعلم النفس علاقة لا بد منها ولا يمكن إنكارها، فطالما ظهرت ملامح هذا الارتباط في الأدب التي انتجته الذات البشرية، وتبعاتها في مدى تدخل أهوائها في مكنونات المنطقة الغامضة في الإنسان، وعادة ما تكون هذه المنطقة هي قطب الرحى التي تتمركز فيها المسببات الأولى والمنطقية للإبداع وما فيها من جوانب شاعرية، أو مخلفات لبعض الأحداث الفاصلة في حياة الإنسان والمحطات، التي تترك أثرا نفسيا محفوظا في ذاكرة الإنسان، يشكل له ما يسمى باللغة الأجنبية بالفلاش باك وبالعربية الومضة السريعة التي تصاحب الإنسان أينما كان، وفي أي وقت كان.

ويسعى المنهج النفسي للأدب إلى فهمها وإفهامها من خلال قراءتها، بطرق ترتكز على ما يصدر عن الأديب من إبداعات أدبية شعرية كانت أم نثرية؛ «لأن التحليل النفسي للأدب انطلق ابتداءً من العناية بالمرسل أي المبدع الأديب ذاته، والربط بين إنتاجه من ناحية، وبين تاريخه الشخصي من ناحية أخرى»[3]؛ حيث أن هذا المنهج يهتم بالأصول السياقية التي تحيط أو أحاطت بالأديب؛ من تراكمات تتعلق بالخبرات والتجارب

[1]. المرجع نفسه، ص 04 .

[2]. أحمد عزت راجح، أصول علم النفس، ص 04 .

[3]. صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر ومصطلحاته، دار ميريت، القاهرة، مصر، ط 1، 2002، ص 69.

من سن الطفولة، إلى غاية السن الذي أنتج فيه ما يدخل تحت لواء الأدب بمفهومه الشاسع والواسع، حين فاضت قريحته بما يجلب الفضول الأدبي النقدي، لمعرفة ما دفع الأديب إلى خوض مثل هذه التجربة الشعرية، والظروف الفاعلة للإبداع، من أماكن معينة وأوقات معينة وأشخاص معينين وأفكار معينة، والتي بدورها تشكل ما يسمى ببيئة أو محيط الشاعر.

ثانيا/ أبرز العوامل النفسية الفاعلة في تقديم الشاعر لأشعاره:

لا ينطلق الأديب في إنتاج أعماله الأدبية الفنية من فراغ، بل يستنبط من حياته وتجاربه مجموع الترجمات الأدبية التي يخاطب بها المتلقي، والذي يعتبرها ملخص أو صورة عاكسة لواقعه واقع كل الناس، ومدى تواصله مع ما يحيط به من مجتمع وبيئة، فالأديب هنا بوصفه خلاق لصور فنية أدبية معبرة مما يريد أن يوصله إلى جمهوره، حيث تتضافر مجموعة من العوامل النفسية التي تدفعه ليحرك قلبه ومشاعره لتنفجر قريحته بما يسمى بالشعر، وما سمي بذلك إلا لأن مصدره الشعور، وإحساس الشاعر أقوى من غيره، وعينه غير أعين العامة، ولكل شعر دوافع توجه إليه فيترجمه في صورة شعرية؛ يقول ابن رشيق القيرواني على لسان دعبل «من أراد المديح فالرغبة، ومن أراد الهجاء بالبغضاء، ومن أراد التشبيب فبالشوق والعشق، ومن أراد المعاتبة فبالاستبطاء»[1]؛ ومفاد القول أن الحالة التي يكون عليها الشاعر هي التي تحدد نوعية شعره وطبيعته فيقترن كل دافع شعوري بنتيجة إبداعية؛ فالهجاء بالبغضاء، والتشبيب بالشوق، والمديح بالرغبة، وهذا لا يدحض ما جاء به علم النفس من طرق تحليلية أخرى، بل هو عبارة عن «نظرة تأملية نفسية لمحاولة استكناه حقيقة النص، قصد الدخول إلى عمق كيان العالم الداخلي لهذه

[1]. ابن رشيق القيرواني المسيلي، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ج1، ص 122.

النفسية المعبرة عن روح الإنسان»[1]، فالبلاغيون العرب القدامى لم ينظروا هذه النظرة باعتبارها محاولة للتنظير في علم النفس أو الإرهاص له، إذ لم يكن حينها علم النفس إلا رؤى واجتهادات لا تقوم على نظرية ومتابعة، كموقف حازم القرطاجني من أنها « أمور تحدث عنها انفعالات وتأثرات للنفوس، لكون تلك الأمور مما يناسبها ويبسطها، أو ينافرها ويقبضها، لاجتماع البسط والقبض والمناسبة والمنافرة في الأمر من وجهين: فالأمر قد يبسط النفس ويؤنسها بالسرة والرجاء، ويقبضها بالكآبة والخوف ويوحشها بصيرورة الأمر من مبدأ سار إلى مآل غير سار»[2].

إن هذا الرأي يحيلنا إلى فكرة أن حالة الشاعر هي المتحكمة في نتاجه الأدبي من جهة، وأنها حالة وليست صفة، والحالة تقتضي التغير والتباين من وقت لآخر، ومن مكان للآخر ومن نفسية لأخرى، فقد يكون الشاعر متغزلا يصف في شعره حبه وشوقه لمحبوبته، وهو يتذكر أوقاته الجميلة معها وساعات وصاله بها، إلا أنه في آخر أبياته قد يعتب عليها، فهنا حالة الشاعر النفسية تغيرت من شوق وحنين إلى لوم وعتاب لمحبوبته على جفائها له وبُعدها عنه، والجاحظ يقول في هذا السياق الخاص بتقلبات نفسية الشاعر:« خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك، فقد قليل تلك الساعة أكرم جوهرا، وأشرف حسبا، وأحسن في الأسماع، وأحلى في الصدور، وأسلم من فاحش الأخطاء، وأجلب لكل عين وغرة، من لفظ شريف ومعنى بديع»[3]؛ أي أن للشعراء أوقاتا معينة في اليوم، فيها من صفو الذهن ورحابة النفس ما يلهم الأديب للنظم شعرا، حتى أنه ينتقل من نفسية لأخرى في نظم الشعر وأغراضه.

---

[1]. عبد القادر فيدوح، الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي دراسة، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط 1، 1998، ص 38.

[2]. حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 02، 1981، ص 11.

[3]. الجاحظ، البيان والتبيين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1968، ص 90 وما بعدها.

لقد انتبهت الدراسات القديمة لعلاقة الزمن بالنتاج الفني، وفكرة تخير الأوقات التي تكون فيها النفس في أرفع أحاسيسها وأصفى أفكارها، حيث نجد أن أبا تمام في وصيته للبحتري قال: « يا أبا عبادة، تخير الأوقات، وأنت قليل الهموم، وصفو من الغموم، واعلم أن العادة في الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شيء، أو حفظه في وقت السحر، وذلك أن النفس قد أخذت حظها من الراحة، وقسطها من النوم»[1]، فتسابق الشعراء القدامى على السبق الفني والمعنوي، واهتموا في ظل تحضيرهم لأنفسهم لقول الشعر بالذهن والنفسيات والذاكرة وما تحتويها من مسببات ومؤهلات نفسية وفنية لصناعة الشعر، وفي هذا يقول ابن قتيبة: «وللشعر أوقات يسمع فيها أبيه، منها أول الليل قبل تغشي الكرى، ومنها صدر النهار قبل الغذاء، ومنها الخلوة في الحبس والمسير، ولهذه العلل تختلف أشعار الشاعر»[2]؛ لقد أكد ابن قتيبة فكرة تنوع حالات الشاعر وأشعاره من حالة إلى أخرى وذكر بعض الأوقات التي تصلح لصناعة الشعر وحددها بأوقات نشاط الذهن وثبات النفسية واستعدادها للإبداع، ويشير أبو هلال العسكري مجاريا صحيفة بشر بن المعتمر أنه «إذا أردت أن تصنع كلاما فأخطر معانيه ببالك، وتنوق له كرائم اللفظ، واجعلها على ذكر منك، ليقرب عليك تناولها، ولا يتعبك تطلبها، واعمله ما دمت في شباب نشاطك»[3]؛ وهو بذلك يدعم الآراء القائلة بتحضير النفسيات للشعر وعمله، وتخير ما حلا من الأوقات وسهل النظم فيه، وترك ما صعب واستخشن الشعر فيه، ومن العوامل الدافعة الأخرى لقول الشعر هي الشوق للأوطان، أو ما شابه من الأماكن التي تعز على الشعراء في حياتهم؛ « كالوجد والاشتياق والحنين إلى المنازل المألوفة»[4]، وهو ما نجده عند الكثير من الشعراء الجاهليين، الذين طالما استهلوا أشعارهم بالبكاء على

[1]. ابن رشيق، العمدة، ص 114.

[2]. ابن قتيبة، الشعر والشعراء، دار الثقافة، بيروت، ج 1، ص 25 . 26.

[3]. أبو هلال العسكري، الصناعتين، تح: علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر، 1981، ص 139.

[4]. حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 249.

الطلل، وتذكر منازلهم ووصفها بالديار والتغني بمن سكنوها من أهاليهم وأحبابهم، ومن ذلك قول امرئ القيس في مطلعه الشهير[1]:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل **** بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وغيرهما من الشعراء الجاهليين الذين أثروا الطلل وبكوا على الديار وأهلها، وذكروها في أشعارهم وخاصة المعلقات بوجه أكيد، كما أن الحب والغزل من المسببات النفسية، أيضا في صناعة الشعر وقوله، حيث ذكر ابن رشيق في عمدته أنه « من أراد أن يقول الشعر فليعشق فإنه يرق، وليرق فإنه يدل»[2]، فعندما يحب المرء أحدهم ويعشقه يرتقي إحساسه وترق مشاعره ويمتلئ قلبه لوعا وشوقا، وينفتح ذهنه للشعر من تصانيف الحب والهيام من ألفاظ، وتشحذ قريحته بوابل المعاني الرقيقة والشريفة، ومن أشهر ما قيل في الغرام قول عنترة في تشبيبه بعبلة[3]:

يا دار عبلة بالجواء تكلمي **** وعمي صباحا دار عبلة وأسلمي

وفي قول آخر قيل أنه ضربٌ من الخيال في الشعر، ومفاده أن عنترة كان يذكر عبلة في خضم الحرب والرماح تنهال عليه متتالية[4]:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل **** مني وبيض الهند تقطر من دمي

إن ما يشعر به الإنسان والذي يكون بدوره في خانة ما يريده، وما يريده بشدة على وجه أكيد وما تؤثر عليه باقي العوامل التي تندرج تحت ما يسمى بالأنا وتخفيه وتمحقه، وتحوله إلى منطقة منسية في نفسية الإنسان راغبة كانت أم نافرة، ويعجز الفرد عن البوح به، وطرحه على شكل أفعال أو تصرفات، أو أي فعل انتقالي ملموس أخر يغير به

[1]. علي الجندي، عيون الشعر العربي القديم، دار غريب، القاهرة، مصر، 2000، ص 13.

[2]. ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وأدبه ونقده، ص 212.

[3]. الزوزني، شرح المعلقات، ص 201.

[4]. المرجع نفسه، ص 201.

الأديب حالته، من كونها فكرة تراود خياله الواسع ويطرحها إلى الواقع الضيق بأفكار المجتمع، وتسلطه حد قمع الأديب في احتواء أفكاره التي تثقل كاهله النفسي، وتشكل عاملا قويا وفاعلا حيويا ومتحكما في توجيه كتابة الشاعر لأشعاره، وغالبا ما لا نستطع فعله أو قوله نصبغه بطلاء أدبي، فيزينه بدوره برداء فني، يساعد الأديب المبدع على أن يقدم ما في جعبته من أحاسيس ومشاعر، كان بحاجة إلى مخاطبتنا بها لنتفاعل معها فهما وإدراكاً وإعجاباً، ثم قراءةً وتجاوباً بمعانيه وأغراضه وصوره التي سعى لرسمها بهيئة مكتملة، وارتأى أن يخرجها لنا في عمله مثير.

ومن العوامل التي تساهم أو تؤثر في إنتاج الشاعر حسب النقاد القدامى هي الأمن الغذائي وطرب النفس، حيث يقول ابن رشيق: «وقيل أن الطعام الطيب، والشراب الطيب، وسماع الغناء، مما يرق الطبع، يصفي المزاج، ويعين على الشعر»[1]؛ لأن الراحة الجسمية تضمن الراحة النفسية والتي بدورها تضمن غزارة إلهام الشاعر وتأملاته الكاشفة عن الإبداع الفني المسمى بالشعر، فلذلك فإن متطلبات الحياة اليومية لها دور تأثيري على نفسية الشاعر وعملية إبداعه أيضا، « وللشعر دواع تحث البطء فتبعث المتكلف، منها الطمع، ومنها الشوق، منها الشراب ومنها الطرب، منها الغضب»[2]، كما أن الأصمعي يصادق على هذا الرأي حين صنف فحول الشعراء حسب طباعهم وأنماط حياتهم؛ فمنهم الكرماء مثل حاتم الطائي والفرسان مثل عنترة بن شداد، والعداؤون مثل السليك بن السلكة وعروة بن الورد وغيرهم؛ لكون هذه الطباع تؤثر في شعرهم، وتصوغه على الشاكلة التي تناسب ذلك الطبع الغالب على حياة الشاعر، والمسيطر على مخيلته ولا يستطيع النظم بعيدا عنه، حتى وإن اختلف بشيء قليل لا يبتعد عن شغف الشاعر الذي تتمحور حوله حياته، فنجد مثلا شعر عنترة تغلب عليه أغراض الفخر والعصبية القبلية، أما شعر حاتم الطائي فيغلب عليه غرض الوعظ والإرشاد، وعروة بن الورد وغيره

[1]. ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج2، ص 212.

[2]. ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج1، ص 23.

من الشعراء الصعاليك، يغلب عليهم غرض الحماسة والتحريض للخروج عن قوانين القبيلة التي ظلمتهم وحرمتهم من حقوقهم، ففي أشعارهم نجد نبرة الثورة والصمود، كـ"لامية العرب" التي تحدث فيها الشنفرى عن حياته في الفيافي الجرداء بصحبه الوحوش والسباع، رفعا لنفسه عن المذلة والمهانة والاحتقار، يقول في مطلعها[1]:

أقيموا بني أمي صدور مطيكم **** فإني لقوم سواكم لأميل

فالشاعر حبيس أفكاره التي تؤثر فيه بشكل أو بآخر في أشعاره، فقد قيل (اشعر الشعراء أربعة امرؤ القيس إذا ركب(الوصف) وزهير إذا رغب، والأعشى إذا شرب، والنابغة إذا رهب) وهم في الطبقة الأولى في طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي، حين صنّف بحسب نفسياتهم الخاصة؛ كل بظروفه التي تسيطر عليه وتوجه تعبيراته وأوصافه وأخيلته الشعرية، بما تتشكل فيه قصائده ومعانيها وأغراضها ومواضيعها وسماتها اللغوية والفنية وأبعادها النفسية والمعنوية، التي تضيفها لمتلقيها وجمهورها من نقاد وأدباء، وغيرهم من قراء الشعر ومهتمين بما تبديه الصور.

ولعل الشاعرة المخضرمة الخنساء أشهر مثال على من حرك قريحتهم الحزن، كان من أهم المسببات النفسية لصناعتهم الشعرية، حيث نظمت رثاء أخيها صخر ما شهر به قديما وحديثا ومما قالت تندبه[2]:

أعيني جودا ولا تجمدا **** ألا تبكيان على صخر الندى؟

ألا تبكيان الجريء الجميل **** ألا تبكيان الفتى السيدا؟

فالخنساء وغيرها من الشعراء الذين أضناهم رحيل أقاربهم والأحبة، وأهمَّ قلوبهم وحرق أكبادهم، مما دفعهم لمحاكاة حزنهم النفسي الداخلي وإخراجه إلينا في قصائد مؤثرة،

[1]. عبد القاهر الجرجاني، الطرائف الأدبية، شرح: عبد العزيز الميمني، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1928، ص 39.

[2]. الخنساء، الديوان، شرح: حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت، ط 02، 1425هـ . 2004 م، ص 31.

كما أن الحزن الذي تحتويه أشعار الخنساء في تراجم النفسيات الحزينة عن تفريق المنايا بين الأحباب والأهل، وموت الفجاءة، كل هذه الآلام تؤدي بالشاعر إلى بكاء الميت، ومخاطبة شمائله في مرثيات حارقة تحاكي الروح على قبر عزيز.

ومن الموضوعات التي تكون فيها الدوافع النفسية للشعر عاملا في بنية القصيدة الفخر، إذ يدفع حب الشاعر لنفسه وإيمانه بعظيم صفاته وكمال شخصيته، من جميع جوانبها أو أغلبها إلى النظم في تمجيد ورفعة شأنها تحديا واستكبارا، فنجد شاعرا كالمتنبي يحمله إعجابه بنفسه ورفعه لمستوى تحدي خصومه، على قول المبالغة عن مكانته الشعرية، ومن الأبيات التي اشتهر فيها المتنبي مفاخرا، يقول[1]:

السيف والليل والخيل والبيداء **** تعرفني والرمح والقرطاس والقلم

أنام ملئ عيوني عن شواردها **** ويسهر القوم جراها ويختصموا

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي ****وأسمعت كلماتي من به صمم

وهو ما يعني أن الشاعر يذيع أحاسيسه بفخره بنفسه ويدعي عن أدبه استحسان من كان ضريرا وعاجزا عن السمع، « فهو ينام قرير العين سعيدا بعد أن أخرج للناس قصيدته وتركهم يقضون الليل في خصام حول مراميها»[2]؛ كما غالى المتنبي شاعر الأنفة والكبرياء في حب نفسه وملكته الشعرية، حد العجب والإعجاب الكبير بنفسه.

فغرض الافتخار والحماسة استخدمه العديد من الشعراء، وتغنوا فيه بحب الأنا والأنفة المفرطة، والمغالاة في ذكر محاسن وصفات النفس واتخاذها مادة للشعر، أو ما كان عند البعض أمثال عمرو بن كلثوم الشاعر الجاهلي بفخره في شعره بصفة الجمع ليذكر محاسن قبيلته جمعاء دون تخيير نفسه، بتفضيلها عن باقي القبائل شجاعة وبسالة

[1]. أبو الطيب المتنبي، الديوان، شرح: أبي البقاء العبكري، تح: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري، دار المعرفة، بيروت، 1978، ص633.

[2]. عز الدين إسماعيل، التفسير النفسي للأدب، دار غريب، القاهرة، ص 34.

ومروءة وفروسية، ونجد صفة النرجسية والغرور عند الشاعر أبي العلاء المعري الذي اغتر وأعجب بنفسه، إلى حد التغني بها في شعره، وأشهر بيت قاله في النرجسية والفخر[1]:

إني وإن كنت الأخير زمانه **** لآت بما لم يأت به الأوائل

فأبو العلاء هنا تأثر نفسيا بحب الذات وبشغفه بالشعر ونظمه، وقارن نفسه بأوائل الشعراء الجاهليين وأصحاب السبق الفني والمعنوي، إلى درجة أنه فضل نفسه عنهم، وأكد أن شعره فريد من نوعه، ولم يسبق لشاعر نظم وقول ما يماثله أو حتى يشابهه، وهذا ما زاده استحقاقاً للإحساس بالفخر والغرور رغم كونه شخصا ضريرا وعاجزا عما يستطيعه المبصرون.

والنماذج النفسية كثيرة في تاريخ الشعر العربي القديم، ومن أجرئها في الإعلان عن نزواته النفسية، ورغائبه الخاصة المحظورة والممنوعة اجتماعيا وأخلاقيا؛ نجد أبا نواس شاعر من الحالات التي صنفت حسب الحالات التي تنضوي تحت مجموع ما صُنف بعقدة أوديب حسب التحليل النفسي الفرويدي الحديث للأدب، وهي تعني في علم النفس العيادي الهوس المرضي بالأم عند المريض، وهذا ناتج عن خوف حاد ورهاب من بُعد الأم عن المريض، أو اختفائها الكلي من حياته مع تعلقه الشديد بها.

وأبو نواس كان ممن أدمنوا اللهو والسكر هروبا من واقع مرير يعيشونه أو عاشوه نقش في ذاكرتهم، وأثقل أحاسيسهم بالأسى والحرمان، تعمل هذه الأحداث على تدمير النفسيات البشرية وتحويلها إلى نفسيات مريضة ومعقدة، تؤثر بدورها في الحياة الفرية للشخص، وتتحكم في تواصله مع العالم الخارجي المحيط به، ويعمل الإنسان وخاصة الشخص المليء بالعواطف، والأحاسيس المرهفة على تخليص نفسيته من هذه العوالق المزعجة الراسبة فيها، وتمكينها من بلورة كل ما هو مؤلم وبشع إلى أدب يعبر فيه

[1]. أبو العلاء المعري، سِقْطُ الزند، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط 1957، ص193.

الشخص عما يجول في خاطره، فحول أبو نواس عقدته إلى نرجسية يمجد فيها ذاته، ووصفها العقاد بأنها « تفسر كل عادة من عادات الحسن ابن هانئ وكل خبر من أخباره وكل نزعة من نزعاته»[1]؛ فهو فشل في مجارات الحياة وتحمل قواعدها القاسية ومشاكلها المتكررة التي تدفعه إلى إلقاء اللوم على أمه التي هجرته بعد رحيل أبيه، فأعلن بطريقة وبأخرى تحديه لمقاييس الأخلاق وخروجه عن قيود المجتمع.[2]

إن العلاقة بين الأدب وعلم النفس أو النقد النفسي أو المنهج النقدي النفسي، علاقة وطيدة وممتدة في جذور التاريخ المدون للنقد الأدبي عامة والشعر بصفة خاصة، لو رجعنا بومضة أدبية للقرن الثاني قبل الميلاد بالضبط للفيلسوف اليوناني أرسطو في كتابه فن الشعر، «لما تضمنه من حديث هام عن التطهير أي عن الأثر النفسي الذي يتركه الشعر في المتلقين»[3]؛ حيث أن حالات الإنسان النفسية والوجدانية والعقلية هي التي تحدد شكل تعبيره، وإبداعه الأدبي الفني وبناءً على ذلك تفسر الأعمال الأدبية، وتحلل بأساليب نفسية تسمح باكتشاف جوانب من شخصية الأديب وكوامنها المكبوتة، حيث أن «المنهج النفسي بدأ بشكل علمي منظم مع بداية علم النفس ذاته، منذ مائة عام على وجه التحديد في نهاية القرن التاسع عشر، بصدور مؤلفات فرويد في التحليل النفسي وتأسيسه لعلم النفس، استعان في هذا التأسيس بدراسة ظواهر الإبداع والفن، كتجليات للظواهر النفسية»[4]؛ لذلك فإن المنهج النفسي في دراسة الأدب ارتبط كثيرا بوجه أو بأخر بأعمال الأديب كنتاج إنساني ينطلق فيه الدارس النفسي، مؤسسا على منواله ما يسمى بالهيكلة النفسية للأديب، والتي اقتضت أن تكون طبيعة هذا الإبداع على هاته الشاكلة الجاهزة.

---

[1] . عباس محمود العقاد، أبو نواس الحسن ابن هانئ، منشورات الكتب العصرية، بيروت، ص 32.

[2]. ينظر: محمد النويهي، نفسية أبو نواس، دار الفكر، بيروت، ط 2، 1980، ص 151.

[3] . رينيه ويلك وأوستن وارين، نظرية الأدب، تر: أحمد بوحسن، دار الأمان، المغرب، ط1، 2004، ص ص138. 139.

[4]. صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر ومصطلحاته، دار ميريت، القاهرة، 2002، ط 1، ص 65 .

وعملت المدارس الأدبية الحديثة وخاصة الرومانسية، على ربط معاني وشروحات العمل الأدبي بالحالة النفسية للأديب، وذلك لأنها آمنت «بطغيان العاطفة على الخيال الإبداعي المولع بالطبيعة، التي تساعد على تحريك القرائح، وزيادة المشاعر بما يمليه القلب وأوهام الخيال»[1]، فقد تميز المذهب الرومانسي في الأدب بتشخيص الطبيعة التي من شأنها أن تمتزج بالأفكار الخاصة بالأديب، وتخلق لنا أدبا رومانسيا ينبض بالمشاعر والأحاسيس؛ حيث أن الطبيعة المتكلمة بمكنوناتها عندما تتحاور فيما بينها، وتمتزج في مخيلة الشاعر ما يكنه في قلبه، بما يريده أن يكون أو يحدث. تتشكل مجموع خبرات الأديب الشاعر أو الناثر مادة غزيرة وخصبة لبناء وتشكيل وبلورة العمل الأدبي ببعده النفسي، لذا لا تخلو الدراسات الأولى للمسببات النفسية للأدب من ربط العمل الأدبي كوثيقة، بالأوضاع المحيطة بالشاعر على سبيل الدراسة التحليلية، ولكن الكثير من الدارسين والنقاد الذين لم يعيروا الجانب البلاغي للكاتب أهمية في الجانب النفسي له، فالاستعارات والكنايات والتشبيهات عامة لها ما تخفيه في ثناياها، مما يتعالق بالمسببات الأولى للعمل الأدبي الإبداعي، وهي الدوافع النفسية، فقيمة شرح الصورة البيانية تكمن في تحديد ما تحدثه من أثر نفسي في السياق العام للنص، والنصوص أرضيات خصبة مهيأة لزرع الصور وحصاد معانيها، بعد موسم من التساؤلات حول ما تخفيه بذور النص، من إضاءات نقدية حول عموم العمل الأدبي .

[1]. عبد القادر فيدوح، الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي، ص 61.

الفصل الأول

تمهيد

أولا/ الشوق والحنين والعتاب

ثانيا/ السجنيات

ثالثا/ التهديد

رابعا/ الغزل

خامسا/ المدح

تمهيد

إن البحث والغوص في تحديد الفعاليات النفسية الأساسية، التي تتدخل في الأعمال الإبداعية للأديب هي من أعقد العمليات النقدية، التي تتسم بها عملية تحليل الخطاب وخاصة الشعري، وبالأخص القديم الذي يختلف عنا بعصره وبيئته، طبعا« إذا كنا نهدف هنا إلى استغلال ما يقدمه إلينا التحليل النفسي من معارف، هو الجانب الذي يشرح لنا طبيعة العمل الشعري ذاته، أعني مكوناته وعناصر التأثير فيه»[1]، حيث أن التفسيرات القديمة للشعر انصبت حول فكرة الإلهام وأن لكل شاعر شيطان، وأن قائل الشعر له علاقة بعالم الجن، وغيره من الغيبيات والخرافات، كفكرة وادي عبقر إحدى تخاريف الجاهلية، وما جاء به ابن شهيد الأندلسي في رسالته التوابع والزوابع، من قصص السخرية والطرافة مما أطلق عليها شجرة الفكاهة، مفادها أنه ذهب إلى واد عبقر، والتقى بشياطين الشعراء القدامى وأسمعهم بعض شعره وشهدوا له بالجودة، وما إلى ذلك من حواراته الماتعة، فالشعراء في دراسات العصور الحديثة يوصفون بمرضى نفسانيين، وأن لهم حالات لا شعورية تطارد طبيعتهم الشعورية العادية، وتدفعها إلى الغوص فيما هو أعمق في النفس البشرية، إلى كوامن سرية مظلمة يعتبرونها من الدوافع الأساسية في نظم الشعر.

وتوصيف هذا المرض لدى الشعراء الأندلسيين من خلال دوافعهم، يمكن وصفه بالجميل، لأنهم يستندون فيه على مرجعيتهم الخاصة (الطبيعة الجميلة)، وهذا ما يجعل أشعارهم تتسم بالرقة والحس المرهف والصدق، وهذا وزيره ابن زيدون مثلا يُعد من أرق شعرائهم، عايش «عصر ملوك الطوائف من أزهى العصور،العلمية والأدبية في بلاد الأندلس إذ تنافس الحكام على جذب العلماء والأدباء واقتناء الكتب وانتشرت المكتبات العامة والخاصة، لذلك ازدهرت الحياة الفكرية بالرغم من انهيار الدولة السياسي بانقسامها

[1]. عز الدين إسماعيل، التفسير النفسي للأدب، دار غريب، القاهرة، ص 35.

إلى دويلات صغيرة»[1]، حيث تنوعت في الأغراض والأنماط والمشاعر وحتى البحور الشعرية أيضا، فلابن زيدون حوالي ثمانية وخمسون ومائة قصيدة وبعض الرسائل النثرية التي كتب بعضها إلى المعتضد، وبعضها إلى ابن جهور، وأغلبها لولادة بنت المستكفي التي اشتهرت بهيامه بها، «إذ يحتل غرام ابن زيدون بولادة بنت المستكفي، نقطة المركز من سيرته وشاعريته، وهذا الغرام نفسه يقدم لنا صورة عن البلاء الذي عاناه أبناء ذلك المجتمع في تركيز العلاقة بين المرأة والرجل»[2]، فابن زيدون من الشعراء العشاق الذين تلقوا الرفض والصد من طرف المجتمع، ولم يكتب لهم القدر أن يجتمعوا مدى الحياة .

يحوي ديوان ابن زيدون على حوالي 158 قصيدة (73 قصيدة و75 قطعة شعرية و10 من النتف الشعرية)، وتعددت الأغراض التي نظم فيها؛ كالشوق والحنين، والعتاب والغزل، والسجينيات وهو الغرض الذي شاع بشكل ملفت في العصر الأندلسي، وغيره من الأغراض الأخرى، وفي كل غرض يتناوله الشاعر نفسيات معذبة دفعت بالشاعر لإجادة تلك المعاني وتحديدها بألفاظ ونظمها في أشعار.

أولا/ الشوق والحنين والعتاب:

إن الحنين والشوق غرض شعري له نصيب وافر من الأشعار، فلا يوجد شاعر إلا ونظم فيه، لأنه ينتج من مجموع العواطف الجياشة للذكريات الجميلة التي تبقى عالقة في الذاكرة، وما للشاعر من أهل هجرهم أو هجروه، أو أصدقاء وخلان فارقهم أو حتى حبيبة ناء عنها أو وطن نفي أو هاجر منه، حيث أن «يحِن حنينا فهو حان، والحنان

[1]. فوزي خضر، عناصر الإبداع الفني في شعر ابن زيدون، الكويت، ط 1، 2004، ص 11.

[2]. عبد اللطيف شرارة، أبو الوليد ابن زيدون . دراسة ومختارات . دار الكتاب العالمي، بيروت، لبنان، ط01، 1988، ص 58.

الرحمة»[1]، والحنين هو التوق والاشتياق، وهو اسم أو صفة تطلق على من يعاني في المنفى والاغتراب عن موطنه الأصلي، وهو من الصفات البشرية الحساسة والمرهفة التي ألقاها الله عز وجل في خلد عباده؛ لتضمن صلة الفرد بأهله مهما طال الزمن وبعدت المسافات في هذا العالم الكبير، كما شاع الشوق والحنين في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي عند امرئ القيس، وعنترة وطَرفة وغيرهم، وفي عصر الإسلام عند عمر بن أبي ربيعة، مالك بن ربيب، ثم في العصر الأموي عند جميل بن معمر وقيس ليلى، وقيس لبنى ثم أبو فراس الحمداني وابن الرومي، والمتنبي في العصر العباسي، أما في العصر الأندلسي فنجد العديد من الشعراء الذين تبنوا هذا الغرض في نظمهم للشعر، وهذا راجع لعدة أسباب تخص الشعراء الأندلسيين دون غيرهم من الشعراء الآخرين، منها تدهور الحياة السياسية والتي بدورها تؤثر علي الحياة الاجتماعية للأفراد، وأصبح الأندلسيون يهاجرون بحثا عن حياة أفضل، سواء أكان في الأمن أو المستوى المعيشي، لذلك فما ترتب عن تلك الهجرات من تشتت للعائلات والأهالي والبعد عن هواء الأندلس الرطيب.

ومن أهم ما دفع شاعرنا ابن زيدون إلى النظم فيما يسمى بالشوق والحنين ما عاشه من فتنة فرقته عن حبه وغرامه لولادة بنت المستكفي وكانت من النساء اللواتي لهن حظ وافر من العلم والأدب والجمال، وكانت شاعرة رقيقة وجميلة وناقدة حاذقة وذكية لها مجلس أدبي، «وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر، وأفياؤها ملعبا لجياد النظم والنثر، يعشوا أهل الأدب إلى ضوء غرتها، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على عشرتها، إلى سهولة حجابها»[2]، تعقده باستضافة جمع من الشعراء والكتاب والنقاد أمثالها في العصر الأندلسي، يتداولون في هذه المجالس الشعر والنثر ونقدهما، ودافع آخر دفع

[1]. محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي: مختار الصحاح، دار الكتاب الحديث، الكويت، ط 1، 1994 . 1414، ص 76، مادة حنن.

[2]. ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق 01، م 01، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1939 1939 م، ص 376.

ببحتري المغرب إلى الشوق والحنين هو السجن، حين دفعت بعض الدسائس والمؤامرات ابن جهور إلى الزج به في السجن، فنجد العديد من المقاطع والأبيات التي تحوي مثل هذه المعاني والدلالات مثال ذلك قوله في مطلع قصيدته النونية الشهيرة:

أضْحَى التّنائي بَديلاً مِنْ تَدانِينَا وَنَـابَ عَـنْ طيـبِ لُقْيانَـا تجافينَـا
وَقَـدْ نَكُـونُ، وَمَـا يُخشَـى تَفَرّقُنـا فـاليومَ نحـنُ، ومَـا يُرْجـى تَلاقينَـا
بِنْـتُم وَبِنّـا، فَمـا ابتَلّـتْ جَوَانِحُنَـا شَـوْقاً إلَـيكُمْ، وَلا جَفّـتْ مآقِينَـا
حَالَـتْ لِفقـدِكُمُ أيّامُنـا، فغَـدَتْ سُـوداً، وكانـتْ بكُـمْ بِيضـاً لَيَالِينَـا
لا تَحْسَـبُوا نَـأيَكُمْ عَنّـا يغيّرُنـا أنْ طالَمـا غَيّـرَ النّـأيُ المُحِبّينَـا!
وَاللهِ مَـا طَلَبَـتْ أهْواؤنَـا بَـدَلاً مِـنْكُمْ، وَلا انصـرَفتْ عـنكمْ أمانينَا
وَاسـألْ هُنالِـكَ: هَلْ عَنّـى تَذكُّرُنا إلفـاً، تـذكُّرُهُ أمسَـى يعنّينَـا؟
وَيَـا نسـيمَ الصَّـبَا بلّـغْ تحيّتَنَـا مَنْ لَوْ على البُعْدِ حَيّا كان يحيِينا
إنْ كان قد عزّ في الدّنيا اللّقاءُ بكمْ في مَوْقِفِ الحَشرِ نَلقاكُمْ وَتَلْقُونَا[1]

ينهار ابن زيدون في اعتراف عشقه ههنا بثقل ما يكابده من الفراق، فتمتزج نفسيته بين الشوق والحنين والحب والعتاب، ويرمي لومه الرقيق على ولادة بقدر حبه لها ويقارنه مع قدر هجرها وبعدها عنه، مؤكدا لوعته في وفائه لها وتشبثه بحبها، وأنه يطمع في وصالها رغم التباعد المكاني الذي يفصلهما، وهو يشير أنه على علم بالذين يكنون له العداء ويسهرون على حرمانه من وصالها ويحاولون إحباط قصة حبهما، ليؤكد في خطابه العاطفي أن النأي لا يغير من حبه لها شيئا، وأن نار الشوق والحنين سكنت فؤاده واتخذت لها من الذكرى حطبا يسعرها، ويخبرها أن ما كان يرجوه العواذل قد أصابوه، وحلت غيوم الجفاء على سمائهما بعدما كانت شمس الوصال والهيام تنيرها، ويتضرع إلى الله أن يكتب لهما اللقاء ولو كان في يوم لا ريب فيه.

[1]. ابن زيدون، الديوان، شرح: إبراهيم شمس الدين، محمد الفاضلي، دار الأبحاث، الجزائر، ط 01، 2009، ص 09.

عبر ابن زيدون عن حاله النفسية جراء الهجر والفراق الحادث بينه وبين محبوبه جسدا لا روحا، باستخدام مجموعة من المفردات التعبيرية، يمكننا تصنيفها إلى مرجعية إحساسه، وقد تداخلت فيما بينها فما صرنا نفرق بين مدلولها الطبيعي الوضعي ومدلولها الشعوري، وتلك الحقلين الدلالين هما:

حقل البعد: التنائي، تجافينا، تفرقنا، جفت، نأيكم، طالما، النأي، بلغ، البعد . .

حقل القرب: تدانينا، لقيانا، اللقاء، نلقاكم، تلقونا .

نلاحظ أن الفرق بين حقلي البعد والقرب في هذه الأبيات فرق شاسع في عدد المفردات فهي كثيرة في البعد وقليلة في القرب؛ لأن الشاعر كان يصف لنا حالته النفسية التي ذاقت ذرعاً بطول الهجر عن محبوبته، وأمله الذي طالما تشبث به للقائها، وهذا يدل على أن كل ما أحس به هو البعد والهجر، ومن شدة لوعته للقيا وظف الشاعر أكثر من شكل لكلمة لمدلول اللقاء بكل مشتقاتها، أو لا لوما على ولادة أنها لم توصله وحققت ما شاء الأعداء أن يكون، وثانيا لهفة اللقاء بعدما عز، فهو جعلها الكلمة المحورية في كل قصائده ذات غرض الشوق والحنين وخاصة التي لولادة منها مثل قوله[1]:

وإن بعدت، وأضنتني الهموم، لقد عهدته، وهو يدنيني، فيسليني
والله ما فارقوني باختيارهم؛ وإنما الدهر، بالمكروه، يرميني
وما تبدلت حبا غير حبهم، إذا تبدلت دين الكفر من ديني
يا رب قرب، على خير، تلاقينا، بالطالع السعد والطير الميامين

فالشيء المفقود في حياة الشاعر دائما ما نجده يتناوله في أشعاره، وبشكل ملفت بغية تجسيده من خلال ملكة الشعر لدى الشعراء، فابن زيدون هنا ينادي ويناشد ولادة لوصله وقطع وتيرة هجرانه التي امتدت وشاعت بين المجتمع الأندلسي في ذلك الحين،

[1]. ابن زيدون، الديوان، ص 19.

طبعا نفسية ابن زيدون هنا متعطشة وبقوة للقاء ولادة، وهو يرجو أن تكون على عهد الحب بينهما كما فعل ولا يزال يفعل، كما بالغ ابن زيدون في إحساسه بأضرار الهجر النفسية عليه، في قوله في نتفة قرض لا شفاعة[1]:

بـالله خـذ من حيـاتي يوماً وصلنـي ساعـةً

كيمـا أنـال بقـرض ما لـم أنـل بشفاعـةً

فهو يدعو الله أن يقرضه ساعة وصل بينه وبين ولادة ويأخذ يوما من حياته، فالشاعر يقرن حبه لمحبوبته بالالتزام الديني، ويرى ضرورة الاستمرار فيه كالعبادة أو كالحنف العظيم، وافتن في حبها والشوق لها حد الهيام، وهذا يتأكد معنا قوله في قصيدة وجهك شافعـي[2]:

أننـي مذ هجرتنـي لـم أذق لـذة الوسـن
ليـت حظـي إشـارة منـك، أو لـحظـة عنـن
شافعــي، يـا معذبي في الهوى، وجهك الحسن

وها هو يتعذب حبا وشوقا لمحبوبته حتى أطلق عليها لقب معذبتي، وسلطان النوم لم يرضخ له بجفن أسهرته الأشواق وأسهدت عينيه الذكرى، ورغم ذلك فهو لم يتراجع عن عادته في الشوق، بل زادت بتقادم الزمن والبعد، وهذا يتجلى وبوضوح في قول ابن زيدون من مقطع أتهجرني؟ [3]:

أتَهْجُرُنـي وَتَغْصِـبُني كِتـابي؟ وَمَـا فـي الحَـقّ غَصْـبي وَاجتِنَـابي أيَجْمُـلِ أنْ
أُبِيحَكَ مَحضٍ وُدّي وأنتَ تسومُني سوءَ العذابِ

[1]. ابن زيدون، الديوان، ص 14.
[2]. المصدر نفسه، ص 15.
[3]. المصدر نفسه، ص 35.

يُجري الشاعر مقارنة بين ما لولادة من نصيب العذاب في قصة حبهما، وما لشاعرنا من نصيب في هذا العذاب، فيخلص إلى أن ولادة لم تتشارك معه أي مما عاناه من أعباء الهجر والفراق، وأن محبوبته لم تبادله الود كما بادلها بل قد نال منها كل أنواع الجفاء والعذاب، ومن مقطع كما تشاء[1]:

كما تَشاءُ، فقُلْ لي، لستُ مُنتَقِلاً، لا تَخشَ منيَ نِسياناً، وَلا بَدَلاً
وَكَيفَ يَنساكَ مَنْ لَمْ يَدرِ بَعدَكَ ما طَعمُ الحياةِ وَلا بالبِعدِ عنك سَلا؟
أتلفْتَني كلفاً، أبْليتَني أسفاً، قَطّعتَني شَغَفاً، أوْرَثْتَني عِلَلا

لقد أصر ابن زيدون على الاحتفاظ بنفس المشاعر والأحاسيس التي تعترف بالحب والشوق لولادة بنت المستكفي، حتى وإن بعدت المسافات وصعبت اللقاءات وخابت أماني الوصال، وقرر القدر دون ذلك وصار، ثم إن ابن زيدون يعاتب ولادة في عدة أبيات منها في قصيدته يا نائما[2]:

مَا ضرَّ لوْ أنّكَ لي راحمُ؛ وَعِلّتي أنْتَ بِها عَالِمُ
يَهْنِيكَ، يا سُؤلي ويَا بُغيَتي، أنّك مِمّا أشْتَكي سَالِمُ
تضحكُ في الحبّ، وأبكي أنَا، أللهُ، فيمَا بيننَا، حاكمُ
أقُولُ لَمّا طارَ عَنّي الكَرَى قَولَ مُعَنًّى، قَلْبُهُ هَائِمُ:
يا نَائِماً أيْقَظَني حُبُّهُ، هبْ لي رُقاداً أيّها النّائِمُ!

ولادة لم تتقاسم مع ولهانها ابن زيدون أمراض الحب ومضاني آلامه، ونفحات شوقه ولوعة مبحريه حد التماهي، تبدي تأثرها ببعدها عن حبيبها، وهو كالأسير أغلقت أبواب

[1]. ابن زيدون، الديوان، ص 20.
[2]. المصدر نفسه، ص 17.

الأمل في وجه إصراره الأبدي على حبه لولادة، وشوقه للقاها فيقول في قصيدته الشوق القاتل[1]:

أجِدُّ، وَمَن أهوَاهُ، في الحُبّ، عابثُ؛ وأوفي له بالعهدِ، إذْ هوَ ناكثُ
حَبيبٌ نأى عني، مَعَ القُرْبِ وَالأسَى، مقيمٌ له، في مضمرِ القلبِ، ماكثُ
جفاني بإلطافِ العِدَا، وأزالَهُ، عنِ الوصلِ، رأيٌ في القطيعةِ حادثُ
تغيّرْتَ عن عهدي، وما زلتُ واثقاً بعهدكَ، لكنْ غيّرتْكَ الحوادثُ

يستعذب ابن زيدون الوفاء ولو بلغ حدود فكرة العبودية الخالصة لمحبوبته، أو ما يسمى بالتفاني في الحب والإلزام حد الهيام التام، والهوس أو حالة تشبه الهوس، وعلم النفس الحديث يشخص الحالات المشابهة لحالة ابن زيدون بالعقد الدفينة، التي عادة ما تظهر على المبدع بشكل متلازم مع الظروف الاجتماعية المحيطة به، وهي التي تكون حتما في اللاشعور بشكل متراكم ينمو في النفسية الخاصة، وكان ابن زيدون عاجزا عن تحقيق أمنية اللقاء بمحبوبته وهو في سجنه النفسي، فآثر مكرها مكانا آخر للقاء فانقطع بفضاء شعره أين تلاقي الروح الروح، ومع علمه بتقصير الحبيبة في وفائها له، يلح في عدة قصائد ويؤكد مدى شغفه بحبها ووفائه لها، انتظارا وإحياءً لما قد مضى من الوصال، ويعلن أنها الوحيدة التي لها كل ولعه، وأنه خصص كل قلبه لها وحدها دون منازع، وفي هذا السياق يقول في مقطع سماه أنا راض[2]:

لم يكنْ هجرُ حبيبي عنْ قلى، لا وَلا ذاكَ التّجَنّي مَلَلا
سرّهُ شكرِيَ، إذْ عافَى، ولمْ يَدْرِ ما غايَةُ صَبرِي فابْتَلَى
أنَا راضٍ بالّذي يرضَى بهِ ليَ منْ لوْ قال: متْ، ما قلتُ: لا

[1]. ابن زيدون، الديوان، ص 33.
[2]. المصدر نفسه، ص 33.

انغمس الشاعر في حاله من الشوق والحنين واللوعة لمحبوبته، يستحضرها في أشعاره أمامه ويحاورها وكأنها موجودة بالفعل، ويتفنن في وصف لهفته للقائها كأنها تسمعه، يلتمس لها الأعذار ويناقشها في بعدها عنه كأنها تكلمه وترد عليه، أدت مبالغة الشاعر إلى إنشائه لحيز خيالي، يستضيف فيه خيال محبوبته ولادة بنت المستكفي، ويتبادل معها أطراف حديث شوقه لها، لكي يتسنى له أن يعيش في فضاء يخلص نفسيته من أعباء اللوعة للحبيب، حيث يقول في قصيدته[1]:

يا دمع صب ما شئت أن تصوبا؛ ويا فؤادي!، آن أن تذوبا!

قد ملأ الشوق الحشا ندوبا، في الغرب إذا رحت بها غريبا

كما أسقط ابن زيدون شوقه لولادة بشوقه للوطن وما فيها من أهله أيضا، فقال عندما كان في مدينة بطليوس بكثير من الألم الذي أرهق فؤاده حنينا، كما كان في طرطوشة أيضا قال في حنين الوطن في نتفة سماها السلام إلى الغرب[2]:

غريب بأقصى الشرق، يشكر للصبا تحملها منه السلام إلى الغرب

وما ضر أنفاس الصبا في احتمالها سلام هوى، يهديه جسم إلى قلب؟

ارتقى الشاعر في هاتين البيتين إلى مستوى متقدم جدا من حب الوطن، والحنين له والألم لفراق أراضيه والبعد عن مسقط رأسه وبلاده الأصلية، إلى حد أنه شبه نفسه بالجسد، وشبه موطنه وهو قرطبة بالقلب، كناية عن مدى اتصاله الروحي بالوطن، وأنه لا يستطيع العيش بمنأى عن الموطن الأصلي، كما هو الحال بالنسبة للجسد الذي يموت إذا انتزع منه قلبه، وقال يحن إلى قرطبة وأيام الأعياد فيها، وكيف يلهو مع خلانه ويجتمع بأهله وأحبابه، وقد كان في بطليموس، عندما فر من السجن لاجئا إلى بني عباد

[1]. ابن زيدون، الديوان، ص 12 .

[2]. المصدر نفسه، ص 14.

في إشبيلية، بعدما ضاق ذرعا من انتظاره لبني جهور ليخلصوه من ظلمة السجن وهم في غفلة عن أمره، في قصيدة سماها لا فطر يسر ولا أضحى[1]:

خَليلَيّ، لا فِطرٌ يَسُرّ وَلا أضْحَى، فما حالُ من أمسَى مَشوقاً كما أضْحَى؟
وَيَهْتاجُ قصرُ الفارسيّ صبابةً ، لقلبيَ، لا تألُوا زِنادَ الأسَى قدْحا
وَأيّامُ وَصْلٍ بالعَقيقِ اقتَضَيْتُهُ، فإلاّ يكُنْ ميعادُهُ العِيدَ فالفِصْحَا
وآصالُ لهوٍ في مسنّاةِ مالكٍ، مُعاطاةَ نَدْمانٍ إذا شِئتَ أوْ سَبْحَا
مَعاهِدُ لَذّاتٍ، وَأوْطانُ صَبْوةً ،أجلْتُ المعلّى في الأماني بها قدْحَا
ألا هلْ إلى الزّهراء أوبَةُ نازحٍ تقضّى تنائيهَا مدامعَهُ نزْحَا

فابن زيدون لم يجد في المناسبات التي قضاها بعيدا عن موطنه قرطبة، ما يبهج القلب ويغذي العواطف ويقرب الأهل، فبُعده عن البلاد التي فيها الأهل والأصدقاء والمحبوبة، التي بادلته الشعور طبعا، فالأفراح لا تفرح ولا تسر عند غياب وبعد عمن يفرح لفرحك، ويحزن لحزنك ممن له يشتاق القلب، وترنو له الجوارح وتشجى له النفس، وهذا ما يذكرنا بمعنى قول الشاعر[2] :

يا دار أين ضبائك اللعس في إنسها كان لي أنسي

وهي من الأبيات التي تعد من أشهر ما قيل في البكاء عن الطلل، والوقوف على الذكريات التي لها ما يربطها بهذا الطلل؛ من أشخاص أو أحداث وغيرها من الذكريات.

أما عندما كان في السجن فقد كتب في ما وسمها بقرطبة الغراء[3]:

سقى الغيث أطلال الأحبة بالحمى وحاك عليها ثوب الوشي منمنما

[1]. ابن زيدون، الديوان، ص 16.
[2] عبد الله بن المعتز، الديوان، دار الكتاب العربي، بيروت، ص 268.
[3]. المصدر نفسه، ص 21.

فما أنا في شيء من الوصل، أطمع ولا أن يزور المقلتين منام

وقد قال يصف شوقه لقرطبة أيضا، عندما كان سجينا يذكر أيام صباه وريعان شبابه، فيما عنونه بـ: سلام على تلك الميادين[1]:

تنشق من عرف الصبا ما تنشقا وعاوده ذكر الصبا فتشوقا
وما زال لمع البرق، لما تألقا يهيب بدمع العين حتى تدفقا
وهل يملك الدمع المشوق المصب أ خليلي إن أجزع فقد وضح العذر
وإن أستطع صبرا فمن شيمتي الصبر وإن يكن زرءا ما أصاب به الدهر

جمع ابن زيدون في أشعاره التي تدخل ضمن ما يسمى بشعر الشوق والحنين بين شوقه لحبيبته ولادة بنت المستكفي، وحنينه إلى موطنه قرطبة الغراء عندما كان في السجن، أو حتى عندما كان ينتقل بين الأماكن الأخرى في الأندلس مثل؛ بطليموس وإشبيلية وطرطوشة وغرناطة، إلى حنينه للأيام الخوالي أثناء الصبا، حيث أن ابن زيدون كغيره من الشعراء في العصور المزهرة في تاريخ الدول العربية المسلمة، قد عاش الرغد وحيا أيام السعد، واستمتع بأيام شبابه باللهو والسهر والسمر بمشاركة الأصدقاء والخلان، بعد أن زج به السجن ظلما كبر سنه، وتقادم به العمر اشتاق لتلك الأيام وبسطها، وصفاء جوها وحلاوة هوائها وندى حدائقها، وعظمة قصورها المشيدة طبيعة ملوكها وحكامها، الذين اهتموا بالشعر والشعراء والأدب والعلوم بصفة أشمل، وكل من كان عالما أو كاتبا أو شاعرا أو فقيها بأمور اللغة والأدب والدين والدنيا، وكثيرا من شعراء تلك الفترة ما كان شاعرا وناثرا على حد سواء وابن زيدون بلا شك كان منهم أو ربما من خيرتهم وأشهرهم.

[1]. ابن زيدون، الديوان، ص 25.

ثانيا/ السجنيات:

لقد شاع غرض السجنيات، أو ما يطلق عليه شعر السجون في العصر الأندلسي بكل فترات الحكم فيه، من مرابطين وملوك الطوائف وغيره من الدول التي مرت بهذا العصر، حيث كانت التغيرات المستمرة في أنظمة الحكم والحكام والوزارات، تنشب بسببها خلافات ومعارك صامتة بين الحكام ووزرائهم، حول الأسبقية والأحقية لمن يعينون وزراء أو كتابا أو حتى أمناء القصر والدولة.

ويعد شعر السجون ههنا من الأشعار التوثيقية، رغم أن كل شعر هو تخليد للحوادث والمواقف والمحطات المهمة التي قيل فيها من زاوية خاصة، لكن شعر يقال في السجن ولا غرو أن فيه من صدق المواقف وبلاغة المطالب بحقوقه، وصوت المظلوم أو التائب أو المعتذر أو المشتاق أو النادم أو المستصرخ طلبا للمساعدة وغيره من الحقائق المثيرة خلف القضبان، ما يجعله أقرب للصدق منه إلى المبالغة، وفيه تعد المثيرات النفسية للمبدع الأدبي مسببات منطقية تدفعه إلى النهوض والتغيير، والشعور بالحزن لحالته والعجز بين جدران السجن المظلم، وكل هذه المحفزات من شأنها أن تبث لنا بلسان الشاعر ما يعبر عن نفسيته ويتكلم عنها، وخير مثال ما قاله شاعرنا ابن زيدون في قصيدته التي ابتدأها بمدح ابن جهور، ثم شكى له بظلمه في السجن، والتي سماها بـ: ظلم الليالـي[1] :

الهَوَى فـي طُلُوعِ تِلْكَ النّجُومِ؛ وَالمُنَـى فـي هُبُوبِ ذاكَ النّسِيمِ
أيّهَـا المُـؤذِني بِظُلْـمِ اللّيـالي، لـيسَ يـومي بواحـدٍ مـن ظلـومِ
قمـرُ الأفـقِ، إنْ تأمّلـتَ، والشّـمسُ هُمَـا يُكْسَـفَانِ دُونَ النّجُـومِ
وهو الدهـر ليـس ينفك ينحو بِالمُصَـابِ العَظِيمِ نَحْوَ العَظِيمِ
بـوّأ اللهُ جهـوراً شـرفَ السّـؤدَدِ، فـي السّـروِ، واللُّبَـابِ الصّـميمِ

[1]. ابن زيدون، الديوان، ص 77 . 78 .

واحدٌ، سلّمَ الجميعُ لـهُ الأمـرَ، فكـانَ الخصـوصُ وفـقَ العمـومِ
خطـرٌ يقتضـي الكمـالَ بنـوعَيْ خُلُـقٍ بَـارِعٍ، وَخَلْـقٍ وَسِـيمِ
أيّهَـا الـوزيرُ ! هـا أنّـا أشـكُو، والعَصَـا بـدءُ قرعِهَـا للحلـيمِ
نَـارُ بَغْـيٍ سَرَى إلـى جَنّـةِ الأمْنِ لَظَاهـا، فَأَصْـبَحَتْ كَالصّـرِيمِ
بـأبي أنـتَ، إنْ تشـأ، تـكُ بـرداً وسـلاماً، كنـارِ إبـراهيمِ
وَوِدَادٌ، يُغَيّـرُ الـدهْرُ مَـا شَـاء ويبقَـى بقـاءَ عهـدِ الكـريمِ
وَثَنَاءٌ، أرْسَلْتُهُ سَلْوَةَ الظّاعِنِ عَنْ شَوْقِهِ، وَلَهْوَ المُقِيمِ

يلتمس ابن زيدون من ابن جهور العفو والصفح والعتق من الأسر في السجن، كما ضمن رسالته الشعرية أبياتا تدخل فيما يسمى بالمدح، حيث أنه ذكر بعضا من خصال ابن جهور الحميدة، وتمجيد حكمته وتعظيم شأنه، كما ذكر الشاعر بعضا من أيام وده معه ووصف علاقته به بعلاقة جيدة وكريمة الوداد، وقارن بينها وبين حكم الوزير ابن جهور عليه وسوء ظنه به على وجه عكسي، فما كان بينهما من ود وصداقة لم يشفع لبراءة ابن زيدون، مما رموه به العدى من تهم تطعن في أمانته وإخلاصه، ومفاد ما كان يرمي إليه شاعرنا من خلال هذه الرسالة الشعرية هي الاستصراخ من شديد حزنه في السجن، واحتجاجه لبراءته بشكل لا يمت للذل بأية صلة ولا يشبه الخضوع ولا ينقص من شأنه، بل صبغه بصبغة مدحية وفخرية بنفسه، ويتجلى ذلك في عدة أبيات في هذه القصيدة التي لم نورها كلها إلا أبياتا منها نحو قول الشاعر:

وهو الدهر لا ينفك ينحو بالمصاب العظيم نحو العظيم

فالشاعر يقصد أن الدهر لا يصيب بمصائبه إلا من كان عظيما، وتكمن عظمته في صبره على مصيبة السجن، وفقدان منصبه في وزارة ابن جهور، وانقطاع حبل وصاله مع محبوبته ولادة، كل هذه المصائب عددها في قوله عن الدهر، أنه لا ينفك يلقي

بالمصائب واحدة تلو الأخرى، وأن الدهر لا يخطئ العظماء، فلهم شأن من المصائب ما يناسب عظمتهم، وهذا ما يشبه ما قاله المتنبي:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وعلى قدر أهل الكرم تأتي المكارم

وفي هذه المعاني الشعرية نكتشف بعض الميول النفسية، للأنفة والكبرياء البالغ عند الشاعر ابن زيدون، وله عدة نصوص شعرية أخرى تؤكد هذا الرأي، وتبرهن على مدى صحته، منها أبياتا من قصيدته حذار التي وجهها لابن عبدوس الذي نافسه في حب ولادة، وكاد له، حيث يقول[1] :

أثـرتَ هزبْـرَ الشّـرَى، إذْ ربـضْ، ونبّهْتَـهُ، إذْ هـدا فـاغتمضْ
ومـا زلْـتَ تبسُـطُ، مسترسـلاً، إليـه يـدَ البغْـيِ، لمّـا انقـبضْ
حـذارِ حـذارِ، فـإنّ الكـريمَ، إذا سـيمَ خسـفاً، أبَـى، فـامتعضْ
فــإنّ سُــكُونَ الشّــجاعِ النَّهُــوسِ، لــيسَ بمانعِــهِ أنْ يعــضْ
وَإنّ الكَواكِبَ لا تُسْتَزَلّ؛ وَإنّ المَقَادِيرَ لا تُعْتَرَضْ

ثالثا/ السخط و التهديد:

إن قصيدة حذار حذار من القصائد الطوال في شعر ابن زيدون، التي تدور معانيها في سياق رسالة تهديد، أرسل بها شاعرنا إلى ابن عبدوس، يخبره بأنه على خطأ مما أصابه في محبوبته، وأن ما أتى به لا يغفر في أية قانون، لاسيما قانون أرقى العلاقات الإنسانية وهي الصداقة، ثم يصف نفسه بالأسد الغاضب في ردة فعله وأن خصومته لن تمر بسلام، وأن أبا عامر قد جنى على نفسه فيما جمعه بولادة في علاقة قد أدمت قلب الشاعر العاشق صدمة وحزنا عما كان يعدهم من الأحباب، محبوبته ولادة بنت

[1]. ابن زيدون، الديوان، ص 55 .

المستكفي، وصديقه أبو عامر بن عبدوس، وله عدة أبيات في هذه القصيدة، تدل بشكل أو بآخر عن هذه الأفكار منها[1]:

أعيذك من أن ترى منزعي، إذا وتري، بالمنـايا، انقبـض

فإني ألين لمن لان لـي وأترك من رام قسري حرض

في هذه الأبيات تتبين أن الصيغة التي بها ابن زيدون في تحذير ابن عبدون من هول ردة فعله للخيانة كانت حادة، وأن ميزان غضبه يساوي وقع الموت، حيث أن الشاعر له منزع نفسي نرجسي، يساعده كإنسان محبط اجتماعيا، مما ترتب عليه إحباطا نفسي وعدوانية نتيجة الصدمات المتتالية على نفسه، وعليه أن يتوارى وراء أنفته وكبريائه المفرط الذي يعزز به ثقته بالزمان مرة أخرى، احتوت قصيدة حذار حذار على العديد من الحقول الدلالية التي لها انعكاسات تدخل ضمن النفسية التي نظمها على أساسها.

حقل النرجسية: الصفات التي أطلقها على نفسه: هزبر الشرى، الكريم، الشجاع، النهوس، الشمس، ماهر، جريء ...، كما كانت لتلك النرجسية مظاهر أخرى في شعره مثل الضمير أنا، وياء النسبة، كقوله: أرى كل مجر، أعيذك، منزعي، فأني، لـي، وأترك، قسري، فغادرته، مصادقتي، أضطلع، أدبي، شيمتي، عادني، نالني، شعري، بعدي، انتخبت، استجدت، مشربي، مضجعي، حسبي، طبت، أبحث.

تعكس هاته المؤشرات الفنية جانبا من جوانب نفسية بحتري المغرب . ابن زيدون . والتي تعددت بتعدد مواضيع قصائده، وهذا الجانب يتجلى كثيرا في أدبه ويتمثل في النرجسية بمفهومها الذي استقيناه من أسطورة الزهرة في أصل قصة النرجسة، وأصبحت رمزا في الغلو والتعصب في عشق الذات وحبها[2]، كذلك فإن الشاعر ابن زيدون قد

[1]. ابن زيدون، الديوان، ص 56 . 57 .

[2]. ينظر: عماد حاتم، أساطير اليونان، دار الشرق العربي، 2008، ط 03، ص 106 وما بعدها.

أصيب بهذه المتلازمة، والتي تتدخل عدة عوامل في إنشائها في التركيبة الشخصية النفسية له، منها:

ـ نشأة ابن زيدون في أسرة عرفت بالعلم والصلاح والمكانة، فقد كان وحيد أمه بعد وفاة أبيه وسنه لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره، الشيء الذي زاد من شغف أمه بتربيته وأنها صبت كل اهتمامها عليه، وحده دون أشقاء يتقاسمون ما له على أمهم من حقوق.

ـ اطلاعه الواسع بأمور الأدب، ونبوغه في الشعر والكتابة وما إلى ذلك من أمور ساعدت في بلورة شخصيته ورفعت شأنه بين أبناء عصره، وزملاءه في مجال الأدب.

ـ تقلده مناصب عليا قريبة من الملك، كمنصب الوزير والكاتب وشاعر البلاط.

ـ افتتانه بشبابه وغروره بمظهره، وخاصة أنه كان رجلا وسيما.

فلابن زيدون كافة المؤهلات الاجتماعية، التي تدفعه للشعور بنرجسيته على باقي أفراد مجتمعه، حتى لقب بذي الوزارتين، الا انه كان يحمل حسا مرهفا طرافة في الكلام ولطف في المجالس وخفة في الطبع ولا ندري كيف استطاع الجمع والملائمة بين هذه الصفات المتنافرة، بالإضافة إلى وقوعه في الحب، وكتابته في التشبيب بمحبوبته ولادة طبعا، مما تبينه لنا النماذج الشعرية الآتية، حيث يقول في قصيدته المسماة أفدي الحبيب[1]:

هلْ راكبٌ، ذاهبٌ عنهمْ، يحيّيني، إذْ لا كتابَ يوافيني، فيُحييني؟
قَدْ مِتُّ، إلاّ ذَمَاءً فيَّ يُمْسِكُهُ أنّ الفُؤَادَ، بِلُقْياهُمْ، يِرَجّيني
مَا سَرّحَ الدَّمْعَ مِن عَيني وأطلَقَه، إلاّ اعتيادُ أسىً في القلبِ مسجونِ

[1]. ابن زيدون، الديوان، ص 19.

في هذه الأبيات يصف الشاعر ألم الفراق، وأن تحية الأحبة من طرف وإن رسالة من كلمات على قلبه كترياق الحياة على من يختنق موتا وملاقاة المحبوبة غاية ما يتمناه في حياته، ويسترسل الشاعر في باقي أبيات القصيدة فيقول[1]:

صبراً! لعلّ الذي بالبُعْدِ أمرضَني، بالقُرْبِ يَوْماً يُداوِيني، فيَشفيني!
كيفَ اصطِباري وَفي كانونَ فارَقَني قَلْبِي، وهَا نحن في أعقابِ تشرِينِ؟
شَخْصٌ، يُذَكّرُني، فاهُ وَغرّتَه، شمسُ النّهارِ، وأنفاسُ الرّياحينِ
لئنْ عطشتُ إلى ذاكَ الرُّضَابِ لكَمْ قد بَاتَ مِنْهُ يُسَقّيني، فَيُرْوِيني!
وَإنْ أفاضَ دُمُوعي نَوْحُ باكِيَةٍ ، فكَمْ أرَاهُ يغنّيني، فيُشجيني !
أوْ حلّ عقدَ عزائي نأيُهُ، فلكَمْ حللتُ، عن خصرِهِ، عقدَ الثّمانينِ
يا حُسنَ إشراقِ ساعاتِ الدُّنُوّ بدَتْ كواكباً في ليالي بعدِهِ الجونِ
أفْدِي الحَبيبَ الذي لوْ كَانَ مُقْتَدِراً لكانَ بالنَّفْسِ وَالأهْلِينَ، يَفْدِيني

رابعا/ الغزل: أو النسيب أو التشبيب، هو الشعر الذي يجري بين المحب والمحبوب، أو ما يصف به العاشق معشوقه من ما يستحسنه فيه من صفات[2]، ولم يستثن ابن زيدون هذا الغرض الرقيق المعاني من باقته الشعرية، حيث تبادل هو وولادة بعض رسائل شعر النسيب، ومما كتب في عشيقته من اعترافات الغزل الرقيق وعبارات الوجد الهامس، قصيدة سر الحسن[3]:

هَلْ لِداعِيكَ مُجِيبُ؟ أمْ لشاكيكَ طَبِيبُ؟
يا قَرِيباً، حِينَ يَنْأى، حاضِراً، حِينَ يَغِيبُ!
كَيْفَ يَسْلُوكَ مُحِبٌّ، زَانَهُ مِنْكَ حَبِيبِ!

[1]. ابن زيدون، الديوان، ص 19.
[2]. ينظر: غازي طليمات وعرفان الأشقر، الأدب الجاهلي (قضاياه . أغراضه . أعلامه . فنونه)، دار الإرشاد، حمص، سوريا، ط 01، 1412هـ . 1992م، ص110.
[3]. ابن زيدون، الديوان، ص 51.

إنّمَـــا أنـــتَ نســـيمٌ، تَتَلَقّـــاهُ القُلُـــوبُ
قَدْ عَلِمْنَا عِلْمَ ظَنٍّ، هوَ ،لا شَكّ، مُصِيبُ
أنّ سِرّ الحُسْنِ مِمّا أضمرَتْ تلكَ الجيوبُ

لقد أبدع ابن زيدون في الغزل وراحت أقواله فيه أمثالا يذكرها المحبين وكان عند الدارسين أرق في الغزل من كثير من الشعراء الذين نظموا في هذا الغرض العاطفي، تشببا بمن ولعوا من نساء، وهذا لحسن استخدامه المعاني التي جسدت مشاعره المرهفة وحبه للجمال بنوعيه؛ الداخلي والخارجي لمحبوبته الوحيدة، على غرار شعراء الأندلس فقد شق للغزل صورة مختلفة بات التعبير عن الجمال وخاصة باستنجادهم بالطبيعة أحد وسائلهم في تصوير مشاعرهم بإسقاط تلك الجماليات الطبيعية على واقع النفس الواقعة تحت سيطرة العشق والهيام.

كما تنافسه العديد من الشعراء في كل عصر، وكان في العصر الأندلسي قد وجدنا رواده كثيرون من هؤلاء الشعراء المتغزلين ابن شهيد، الحصري القيرواني، ابن خفاجة، وعرف كذلك دخول الشاعرات المتغزلات مثل حمدونة بنت زياد ونزهون الغرناطية وغيرهما.

كما أن ابن زيدون له عدة أشعار تغزل فيها بولادة منها نتفة سماها ورد وخمر[1] يقول فيها:

كَأنْ عَشِيَّ القَطْرِ في شاطىء النَّهْرِ وقدْ زهرَتْ فيهِ الأزاهرُ كالزّهرِ
ترُشّ بماء الوردِ رشّاً وتنثني لِتَغْلِيفِ أفْواهٍ بِطَيّبَةِ الخَمْرِ

ومقطع أسماه أنساني التوبة[2]:

[1]. ابن زيدون، الديوان، ص 186.
[2]. المصدر نفسه، ص 185.

أيّتُهـا الـنّفسُ إليـهِ اذْهَبـي، فمَـا لقلبـيَ عنْـهُ مـنْ مـذْهَبِ
مُفَضَّـضُ الثّغْـرِ لَـهُ نُقطَـةٌ مِـنْ عَنْبَـرٍ فـي خَـدِّهِ المُـذْهَبِ
أنْسَانيَ التّوبَةَ مِنْ حُبّهِ طلوعُهُ شمْساً منَ المغربِ

ومقطع آخر يقول فيه[1]:

أهْـدي إلـيّ بَقِيّـةَ المِسْـوَاكِ، لا تظهـرِي بخـلاً بعـودِ أراكِ
فَلَعَـلّ نَفْسِـي، أنْ يُـنَفَّسَ سـاعَةً عَنْهَـا، بِتَقْبِيـلِ المُقَبّـلِ فَـاكِ
يـا كوكبـاً، بـارَى سـناه سـناءه، تزهـى القصـورُ بـهِ علـى الأفـلاكِ
قرّتْ وفازَتْ، بالخطيرِ من المُنى، عينٌ تقلّبُ لحظَها، فترَاكِ

إن ديوان ابن زيدون سجل حافل باعترافات الحب، وانتهج في تقديمها سبلا مختلفة وصيغا تُعجز المخاطب، وتذيب قلب المتيمين، ولم يأنف في تلك الاعترافات أن يخفي ما يكابده من ألم وما يعايش في ظل البعاد من فوضى الأحاسيس وآلام النفس والتياع الجوارح، ولم يشعر أن ذلك منقصة في رجولته، ولا انهزاما أمام امرأة ولو كانت تمثل له شيء، إنه الوفاء والمحبة النقية الصادقة الطاهرة، والغزل بها كلام عفيف نابع من وجدان سليم رغم أسقام النوى، فحبه لولادة بنت المستكفي جعله خصب الخيال، غني الألفاظ، كريم المعنى، قوي البناء، حسن السبك على نهج شعراء بني عذرة، ومحافظته على أساليب وخصائص القصيدة الفنية المشرقية منها في البناء: (مقدمة، صلب الموضوع، وخاتمة)، ومعاني الغزل بالمرأة بصفة عامة كتشبيهها بالبدر ووصفها بالقمر والشمس والظبي والغزال ...، حيث تكمن الإشارات والمعاني النفسية في قصائد الغزل هذه عادة في الحب والعشق والولع، كما احتوت هذه الأبيات التي اخترناها من غزليات شاعرنا على حقل معاني سائد بشكل غالب على النص الشعري وهو التشبب أو التشبيب، ومن هذه الألفاظ نجد في العذري منه: (غزالا، فنون الحسن، فتيت المسك، شمس الضحى،

[1]. ابن زيدون، الديوان، ص 48.

قضيب اللبان، ريم الفلا، رامشة، طيبة النشر، الغصن الفينان، الرشا، ورد تألق، نيلوفر، عبق الصبح، قمر، بدر، هلال، الروح، أنسي، الحياة)؛ وتدل هذه الألفاظ على نفسية الشاعر العاشقة والشغوفة والمعجبة بحسن ولادة، وذلك في تشبيه لها بمكونات الطبيعة الخلابة، وتشخيصها بالمدى الإنساني للحركية من شمس تشرق، وبدر يطلع وزهر يتفتح، وورد يعبق، وغصن ينحني ومسك يفوح، أما ما يدل عن النفسية المحبة والمغرمة والهائمة؛ فتكمن في تعبير الشاعر عن ولادة بالروح، والكبد والقلب، والحياة، خاصة وأن الإعجاب بالجمال والذكاء، والتقارب في الميادين الفكرية بين ابن زيدون وولادة في الأدب والجمال، وصناعته وتذوقه ما جعل علاقة ولادة بابن زيدون مفسرة على نحو لا يمت للمنطق الواقعي بصلة ما، وهذا ما يجعلنا ننطلق في رحلة البحث الأدبي عن المسببات والدوافع التي جعلت من علاقة شاعرنا بمحبوبته تبوء بالفشل، رغم سعة عمق المشاعر التي جمعتهما، والتي وصلنا منها ما بثوه في رسائل الشعر التي دارت بينهما عن الشوق والحنين، كما نجد من خلال التأني المطول في الاطلاع عن فصول علاقتهما تؤكد حبها لابن زيدون اشتياقها له وذلك في قولها في رسالة شعرية ترد بها عليه[1]:

ألا هل لنا من بعد هذا التفرق سبيل فيشكو كل صب بما لقي؟
وقد كنت أو قلت التزاور في الشتا أبيت على جمر من الشوق محرق
فكيف وقد أمسيت في حال قطعة لقد عجل المقدار ما كنت أتقي
تمر الليالي فلا أرى البين ينقضي ولا الصبر من الشوق معتقي
سقى الله أرضا قد عدت لك منزلا بكل سكوب هاطل الودق مغدق

ويرد عليها ابن زيدون[2]:

لحا الله يوما لست فيه بملتق محياك من أجل النوى والتفرق

[1]. ابن زيدون، الديوان، ص 184.
[2]. المصدر نفسه، ص 185.

وكيف يطيب العيش دون مسرة وأي سرور للكئيب المؤرق؟

فولادة مثل أي من المحبين، وقد تساقاها هوى ابن زيدون، لكنها لم تستطع الإحاطة به ولم تدرك جسيم تضحياته لها ولم تتعاطى رقيق تعابير الجوى وأفكار الوفاء برسائله الشعرية الغزلية، وهذا راجع لكونها لها خلفيات نفسية تتمثل في مخاوف دفينة من الضياع، والانحلال في تصابي ابن زيدون ولهوه، وبعده عن الجدية في علاقته بها، لأننا لو اطلعنا بشكل دقيق على ماضي ولادة لوجدنا أن أباها الخليفة المستكفي بالله الذي قيل فيه: «ربعه أشقر أزرق أشم مدور الوجه واللحية، ضخم الوجه والجسم، كبير البطن، صاحب أكل ومشرب وجماع وتخلف»[1]، هو السبب الرئيسي والوجيه في صرم حبال وصالها به، فهي نتيجة لما لاقته أسرتها من تفكك اجتماعي وعاطفي بسبب نقص الأبوة، فلم تشأ أن تعيد الكرة مرة أخرى بعلاقتها بابن زيدون، والذي لم تخف عنها طباعه المشابهة لطباع والدها المستكفي الحافل بملذات الحياة، ولم تر ولادة مستقبلها معه وطيدا وبعيدا عن حياتها الآنية فابن زيدون لم يكن يختلف عن والدها بل كان وزيره ومشيره ومعينه، ولم يظهر عليه اختلافا عن سيده حتى حينما فر بقي يحن إلى ذاك الزمان، كما عرفت عليه مزاجه المتغير، حسب حالات فرحه وحزنه، وخاصة أنه قد فشل في حياته على الصعيدين المهني عندما تنحى عن منصب الوزير عند أبي حزم بن جهور، وانفصاله عنها على الصعيد العاطفي، وهذا ما لم تتقبله نفسية شاعرنا النرجسية، ولم ترضخ لها أناه المستعلية عن تقبل الواقع المعاش، نتيجة لاحتفاظه بصورته المبجلة والمعززة المكرمة، التي طالما رآها في عيني أمه التي غمرته باهتمام واسع النطاق، أفقده الإحساس بمن حوله وضرورة الاعتناء بوجودهم كذلك، كما تجدر الإشارة إلى أن لولادة نظرة ثاقبة وحكمة كبيرة في رؤيتها العقلية المنطقية البحتة التي تغلبها على حياتها

[1]. الضبي: أحمد ابن يحي، بغية الملتمس، مطبعة روخس، مدريد، اسبانيا، 1884، ج 03، ص 140 . 141.

العاطفية، أما ما يؤكد ميزاجية ابن زيدون ما يتجلى في قوله مما صنفه بعض النقاد في غزله بولادة وعابوه عليه[1]:

أكْـرِمْ بِـوَلاّدَةِ ذُخْـراً لِمُـدّخِرٍ لـوْ فَرَّقـتْ بَـينَ بَيْطـارٍ وعَطّـارِ
قالوا: أبُو عامِرٍ أضْحَى يُلِمُّ بها، قلتُ: الفراشةُ قد تدنو من النّارِ
عَيّرْتُمُونا بأنْ قَد صارَ يَخْلُفُنا فِيمَنْ نُحِبّ وما في ذاكَ مِنْ عارِ
أكلٌ شهيٌّ أصبْنَا منْ أطايبِهِ بَعْضاً وبَعْضاً صَفَحْنَا عَنهُ للفَارِ

في هذا المقطع نرى عدة آراء منها أن الشاعر قد أعلى من شأن ولادة، وأكرم بها خير ادخار، ولكنها حين أصبحت لابن عبدوس أنزل من شأنها ووازاها بباقي ملذات الدنيا، فهي بالنسبة إليه كالأكل اللذيذ الطازج، الذي تأكل منه الأسياد، وما تبقى منه يرمى للحيوانات، وهذا ما يجعلنا نتذكر نفس موقف هند زوجة الحجاج بن يوسف الثقفي التي طلقها بكلمتين، وعندما تزوجت ثانيةً، والتقى الحجاج بزوجها أسمعه ما يشبه ما قاله ابن زيدون في هجاء أبي عامر ونعته بالفأر، فنفسية الشاعر لم تتحمل نظرة المجتمع له باستصغار بعد انهزامه أمام غريمه في حب ولادة وهواها.

خامسا/ المدح:

لم يخلُ ديوان ابن زيدون من بعض القصائد التي تشهد لشاعرنا، بانتمائه القوي لرابطة الشعراء الأندلسيين الذين اشتهروا بالمدح، وخاصة للملوك في كل عصور الحكم في الأندلس، وهذا بتشجيع ملوك الأندلس للشعراء والعلماء، وكل من نبغ في العلوم والأدب والفنون مادياً ومعنوياً، كما يدل على سعة الثقافة والمعرفة في هذا الفضاء الجميل، وما يؤكد إخلاص الشعراء لأولياء نعمتهم وامتنانهم لهم، وابن زيدون شاعر

[1]. ابن زيدون، الديوان، ص 187.

ووزير، لم ينس من مد له يد العون وهو في أمس الحاجة إليها، حين هرب من سجن بنو جهور نحو إشبيلية، وعند توليه منصب الوزارة أيضا في حكومة المعتمد والمعتضد وغيرهما، ومن أشهر ما كتب شاعرنا في المدح قصيدة يمجد فيها أبا الوليد بن جهور صاحب قرطبة[1]:

ما للمدامِ تديرُهَا عيناكِ، فيميلُ في سكرِ الصِّبَا عطفاكِ؟
هَلاّ مَزَجْتِ لَعاشِقِيكِ سُلافَها ببرودِ ظلمِكِ أو بعذْبِ لماكِ؟
بلْ ما عليكِ وقد محضْتُ لكِ الهوى في أنْ أفوزَ بحظوةِ المسواكِ؟
للجَهْوَرِيّ أبي الوَليدِ خَلائِقٌ كالرّوْضِ أضْحَكَهُ الغَمَامُ الباكي
ملكٌ يسوسُ الدّهرَ منهُ مهذَّبٌ، تَدْبِيُرهُ للمُلْكِ خَيْرٌ مِلاكِ
شمسُ النّهارِ وبدرُهُ ونجومُهُ أبناؤهُ، منْ فرقدٍ وسماكِ

وفي مدح المعتضد بن عباد . صاحب اشبيلية، يهنئه بعيد الأضحى . يقول[2]:

أما في نسيم الريح عرف معرف لنا هل لذات الوقف بالجزع موقف فنقضي أو طار المنى من زيارة، لنا كلف منها بما نتكلف

وفي قصيدة أخرى يمدح الوزير أبا عبد الله بن عبد العزيز[3]:

رَاحَتْ، فَصَحّ بهَا السّقِيمْ، ريحٌ معطَّرةُ النّسيمْ
مقبولَةٌ هبّتْ قبولاً، فَهْيَ تَعْبَقُ في الشَّمِيمْ
أفَضيضُ مِسْكٍ أمْ بَلَنْسِيَةٌ لريّاهَا نميمْ
إيهًا أبَا عَبْدِ الإلَه، دُعاءُ مَغْلُوبِ العَرِيمْ
إنْ عيلَ صبرِي منْ فراقِكَ فَالعَذَابُ بِهِ أليمْ

[1]. ابن زيدون، الديوان، ص 59.
[2]. المصدر نفسه، ص 61.
[3]. المصدر نفسه، ص 68.

ومثلها ما مدح بها أبا الوليد بن جهور[1]:

هَلْ عَهِدْنا الشّمسَ يَعْتَادُ الكِلِلْ؛ أمْ شَهِدْنَا البَدْرَ يَجتابُ الحُلَلْ
أمْ قَضِيبُ البَانِ، يَعْنِيهِ الهَوَى، أمْ غَزَالُ الفَقْرِ، يُصبْهِ الغَزَلْ؟
أيّهَا المُخْتَالُ في زِينَتِهِ! أنْتَ أولى النّاسِ بالخالِ، فخلْ
إنّ مَنْ أضْحَى أبَاهُ جَهْوَرٌ، قالتِ الآمالُ عنهُ، ففعَلْ

وفي مدح أبا الحزم بن جهور أيضا يقول[2]:

هذا الصّباحُ، على سرَاكِ، رقيبَا، فَصلِي بِفَرْعِكَ لَيْلَكِ الغِرْبِيبَا
ولـدَيْكِ، أمثـالَ النّجـومِ، قلائـدٌ، أَلِفَـتْ سَـمَاءكِ لَبّـةً وَتَرِيبَـا
أنا سيفك الصّدىء الذي مهما تشأ تُعِدِ الصّقَالَ إليه والتّذْرِيبَا

ويمدح المظفر سيف الدولة أبا بكر محمد بن مسلم، صاحب بطليوس فيقول[3]:

لِبِـيضِ الطُّلَـى، وَلِسُـودِ اللِّمَـمْ، بِعَقْلِـيَ، مُـذْ بِـنّ عَنـي، لَمَـمْ
ففَي نَاظِرِي، عَنْ رَشادٍ، عَمًى؛ وَفي أُذُني، عَنْ مَلامٍ، صَمَمْ
ليـاليَ نامَـتْ عيـونُ الوشـاةِ عنّـا، وعـينُ الرّضَـى لـم تـنَمْ
وَأيّامُنَـا مُـذْهَبَاتُ البُـرودِ، رقـاقُ الحواشـي، صـوافي الأدَمْ
كأنّ أبَا بكرٍ الأسلميَّ أجرَى عليهَا فرندَ الكرَمْ

المدح غرض كريم المعاني رقيق الألفاظ شامل المقاصد، والشيم الحميدة والخصال المحبوبة التي يقدمها الشاعر في أشعاره، واصفا بها من يوجه إليه المدح بالقصد والتحديد، حيث استخدم ابن زيدون هذا الغرض، كسلم يتسلق به قلوب حكام عصره . وخاصة بنو جهور، وبنو عباد الذين شهدوا له بالشعرية والذكاء. ليصل إلى المناصب

[1]. ابن زيدون، الديوان، ص 79.
[2]. المصدر نفسه، ص 81.
[3]. المصدر نفسه، ص 105 . 106 . 107.

العليا في البلاد، فكانت ملكته الشعرية الورقة الرابحة، التي جرفته نحو الأمان في كل مرة تعترضه عاصفة في طريقه إلى المجد، كما أن شاعرنا يستخدم الألفاظ والعبارات التي تنتمي على حقل الاستعظام كقوله: (عطفاك، عاشقيك، لك الهوى، أفوز بحضوة المسواك، ملك يسوس الدهر، مهذب، خير ملاك، خلائق كالروض، شمس النهار وبدره، نجومه، من فرقد وسماك، نسيم الريح، ريح معطرة، المنى من زيارة، قضيب البان، غزال الفقر، المختال في زينته، أمثال النجوم، قلائد ألفت سمائك لبة، أنا سيفك الصدئ، مذهبات البرود، رقاق الحواشي، فرند الكرم)؛ من هذه المعاني نستشف جانبا من نفسية شاعرنا العبقري، وهي رفع شأن من كان بحاجته، على حساب استصغار أناه التي طالما تغنى بها وأحبها حد النرجسية، كما رأينا سابقا ليصل إلى مبتغاه، ممن كان يمدحه في سبيل طلب يد العون منهم، بشكل يبتعد عن الابتذال والركاكة، ليظفر باستحسان واستعذاب من كانوا أرفع منه درجة، حتى يرفعوه إليهم، ويكرمونه بسخائهم ولطفهم، ومن أشكال مراوغاته في التقرب من الملوك وأصحاب الشأن أنه كان يتخير الأوقات، التي تناسب رسائله الشعرية الاستعطافية كالأعياد، والمرثيات لموتاهم والمداعبات والمصادقات في أوقات الصفو، وإرسال بعض الهدايا كالتفاح والخمر وحتى الأدوية والترحيبات والتهليلات والتكريمات، والشكر والامتنان والخضوع بالطاعة، وإثبات الولاء والبقاء على العهد حد الإخلاص التام والوفاء الكلي.

ومما رأينا من تنوعات وتباينات في المجال النفسي لشاعرنا أبي الوليد بن زيدون، وهو ما نتج عنه تعدد في المناهل الشعرية التي ينظم على منوالها الشاعر، ويخضع لقوانينها فتملي عليه بشكل غير مباشر، يدخل فيما لا يشعر به من مصوغات لعمله الإبداعي، وهو ما نطلق عليه نفسية العمل الإبداعي، وهذه لدى ابن زيدون استراتيجية متباينة بين النرجسية والكبرياء، الحب والغزل، والشوق والعتاب، والكره والهجاء، والصداقة والوفاء، والضعف والانهيار، والبكاء والنحيب، وهكذا من النفسيات التي منها ما استطعنا كشفها ومنها ما اكتفينا بذكرها فحسب، والتي تضفي جمالية الغموض وانسداله عما كان

يختلج نفسية الشاعر أثناء كانت قريحته منهمرة بما يشفي جروحا ساهمت في ملكته، وقومت ساقها لتزهر بما ينعش القارئ المكد، ويحفزه للبحث أكثر، فيما يسمى بنفسية العمل الأدبي.

الفصل الثاني

تمهيد:

أولا/ الصورة الشعرية:

_1/ التشبيهات:

2/ الاستعارة:

3/ الإيقاع الموسيقي:

أ . لإيقاع الخارجي:

ب . الإيقاع الداخلي:

ثانيا/ التناص:

4 .1 . التناص المباشر من القرآن الكريم:

أ . تناص معاني و صور:

ب . التناص القصصي:

4 .2 . التناص من الأقوال المأثورة و الأشعار:

أ . من الأقوال المأثورة:

ب . من الأشعار:

تمهيد:

تتناغم أفكار الشاعر دوما مع لغته التي يأتي العمل الإبداعي مبلورا بها، وحيث يسعى كل مبدع أدبي لتحقيق التجانس اللفظي المعنوي؛ بين ما يحس به نفسياً وما له من قدرات فنية إبداعية لغوية، شأنه شأن النحات والرسام ...، فاللغة الأدبية الفنية المزخرفة والمنمقة التي نجدها في الأعمال الأدبية لاسيما الخالدة منها، لها ما يميزها عن اللغة العادية الجافة، التي نجدها في الكلام العادي في الحوارات اليومية كالصحف والنشرات الإخبارية، حيث يكون للشاعر صفات فنية أدبية تتعلق بمخزونه اللغوي الغزير؛ كالبلاغة والنحو وهذا ما يطلق عليه القاضي عبد الجبار الجرجاني بنظرية النظم، التي ألمت بكل ما يتعلق بحسن التأليف والتركيب والملاءمة بينهما، مع إجادة المناسبة والتنسيق بينهما، مما ينتج عنها العديد من الظواهر الجمالية التي تكسو النص وخاصة الشعري بالألوان والأطياف المتمثلة في الصور الشعرية والتناص وموسيقى الإيقاع الشعري، التي تجلت في دواوين الشعر القديم.

ولعلنا نقع في ديوان ابن زيدون على العديد من الزخارف الفنية العريقة، أطلق فيها شاعرنا العنان لما له من مهارات لغوية أدبية فنية عكست لنا بشكل وبآخر نفسية هذا الشاعر الأندلسي العظيم، بما يحمله من كتلة الإحساس النفسي المتباين تباين مسار حياته عامة، إن أهم ما يجذب القارئ أو الدارس بشكل أدق في أول وهلة لقراءته للنص الشعري هي الصور الفنية كالاستعارات والكنايات والتشبيهات، وديوان ابن زيدون حافل بها وبأنواعها.

أولا/ الصورة الشعرية: وهي ما يُنتج عن إبداع الشاعر من معاني مجسدة بعبارات يوازي بينها وبين ما أراد إيصاله من فن أدبي، وخاصة في فن الشعر الذي تتزن فيه المعاني مع الألفاظ لتبلور المدى الإبداعي الذي أتقنه الشاعر، « فالشعر بحد ذاته قائم

على الصورة الشعرية أو مبني عليها ولكن استعمالها يختلف من شخص لآخر، كما أن الشعر الحديث يختلف عن الشعر القديم في استعماله للصورة الشعرية»[1]، المعيار الذي يتم من خلاله الحكم على أصالة الشاعر وقدرته على تشكيلها وبنائها، بشكل يحفز القارئ على التواصل مع رسالة الكاتب من خلال النص الشعري، فحين ترتبط الصورة الشعرية بالخيال يكون مدى عمق واتساع خيال الشاعر يضمن مدى جمال صوره الشعرية التي يقوم بصنعها وخلقها.

لقد ربط العرب الشعرية بعدة مؤشرات لغوية فنية متنوعة، منها التشبيهات عند ابن طباطبا العلوي وابن الأثير وأبي هلال العسكري، ومنهم من يربطها بالخيال كعبد القاهر الجرجاني ومن أنماط الصورة الشعرية، ومنه نجد أن معظم النقاد العرب القدامى يحومون حول فكرة ربط فكرة الصورة الشعرية بالتشبيه وأنواعه، وقصرها عليه دون باقي المؤشرات الأخرى. كالرمز والصورة الحسية والصورة الذهنية.

_**1/ التشبيهات:** والتشبيه هو «صفة الشيء بما قاربه وشاكله، من جهة واحدة أو من جهات كثيرة لا من جميع جهاته، لأنه لو ناسبه كله لكان إياه»[2]، وللتشبيه أركان كالمشبه والمشبه به، وأداة التشبيه كالكاف ونحوها بالإضافة إلى وجه الشبه، كما أن للتشبيه أنواع وهي: التشبيه المركب، التشبيه الضمني، تشبيبه المفرد بالمفرد، التشبيه المقلوب، التشبيه المؤكد، التشبيه البليغ.

ويتجلى التشبيه في ديوان ابن زيدون من خلال تشبيه المرأة في عدة مواضع من شعره برموز مختلفة، ألزمها بها طيلة رحلته الشعرية، نحو قوله بتشبيهها برموز الجمال

[1]. كامل حسن البصير، بناء الصورة الفنية في البيان العربي، المجمع العلمي العراقي بغداد، 1987، ص 547.

[2]. ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده، دار الجيل، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ط:5، 1981، ج:1، ص 286.

المتداولة عند الشعراء والمعروفة لدى أغلبهم[1]:

كانت له الشمس ظئرا في أكلته، بل ما تجلى لها أحايينا

كأنما أثبت في صحن وجنته، زهر الكواكب تعويذا وتزيينا

وفي بيت آخر من قصيدة " أضحى التنائي" يقول فيه[2]:

يا جنة الخلد أبدلنا، بسلسلها، والكوثر العذب زقوما وغسلينا

كأننا لم نبت، والوصل ثالثنا، والسعد قد غض من أجفان واشينا

ويقول في قصيدة أخرى سماها " سلام الوداع"[3]:

ومهما هززت إليك العتاب، ظاهرت بين ضروب العلل

كأنك ناظرت أهل الكلام، وأوتيت فهما بعلم الجدل

ويقول في قصيدة" سلوتم بقينا عشاقا"[4]:

نلهو بما يستميل العين من زهر، جال الندى فيه، حتى مالت أعناقا

كان أعينهن إذ عاينت أرقي، بكت لما بي، فجال الدمع رقراقا

ورد تألقن في ضاحي منابته، فازداد منه الضحى في العين إشراقا

وفي قصيدة "شط المزار" يقول أيضا[5]:

غريب فنون الحسن، يرتاح درعه، متى ضاف ذرعا بالذي حازه المرط

[1]. ابن زيدون، الديوان، شرح: إبراهيم شمس الدين محمد لفاضلي، دار الأبحاث، الجزائر، ط:01، 2009، ص 11.

[2]. المصدر نفسه، ص 11.

[3]. المصدر نفسه، ص 24.

[4]. المصدر نفسه،ص 29.

[5]. المصدر نفسه ، ص 39.

كأن فؤادي، يوم أهوى مودعا، هوى خافقا منه بحيث هوى القرط

نلاحظ روعة التشبيه في أشعار بحتري الأندلس، وتميزها عن غيره من الشعراء الذين استخدموا هذا النوع من الصور البيانية، فهو يشبه صورة فنية كاملة الأطراف بصورة أخرى واقعية، كان قد رأى لها فيها لمحة من وجه الشبه الذي بمخيلته، والذي قد وفق في اطلاعنا عليها، وإدخالنا في جو من الخيال الذي غالبا ما يتصل بتشخيص الطبيعة، وهي من مميزات الشعر الأندلسي بصفة عامة، لأن قوة المعنى في طريقة ابن زيدون تتجلى في نظم بيت من الشعر مشبع بالأوصاف والنعوت؛ ليعطينا مثاله في الحياة الواقعية من تلك الصفات والنعوت التي حدثنا عنها في البيت الذي يسبقه، وهذا ما يسمى بمهاره المزج بين الواقع والخيال دون عي أو فساد.

2/ الاستعارة: هي نوع من أنواع الصور الفنية التي تساهم في إبراز قدرة الشاعر على التعبير عن مشاعره بالدرجة الأولى، وقدرته على إيصال أدبه بأبهى حلة فنية بالدرجة الثانية، فهي تشبيه بليغ حذف أحد طرفيه؛ المشبه أو المشبه به، وهي نوعان الاستعارة التصريحية؛ وهي مجاز لغوي مع مشبه به، والاستعارة المكنية؛ وهي مجاز لغوي مع مشبه حيث أن شعر ابن زيدون زاخر بالاستعارات ومنها قوله في قصيدته التي اشتهر بها" أضحى التنائي" :[1]

أن الزمان الذي ما زال يضحكنا، أنسا بقربهم قد عاد يبكينا

وقوله أيضا في بيت آخر[2]:

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا، شوقا إليكم، ولا جفت مآقينا

وآخر أيضا [3]:

[1]. ابن زيدون، الديوان، ص 09.

[2]. المصدر نفسه، ص09.

[3]. المصدر نفسه، ص 11.

سران في خاطر الظلماء يكتمنا، حتى يكاد لسان الصبح يفشينا

وفي مطلع قصيدته " وجهك شافعي":

يا غزالا أصارني، موثقا، في يد المحن[1]

وقوله في نتفته " خمر وورد" [2]:

وشادن أسأله قهوة، فجاد بالقهوة والورد

فبت أسقى الراح من ريقه، وأجتني الورد من الخد

ويقول في عتابه لمحبوبته[3]:

وأغرس في محبتك الأماني، وأجني الموت من ثمرات غرسي

فعند النظر في كيفية خلق شاعرنا ابن زيدون لاستعاراته من الأوصاف والأحوال، لا يسعنا سوى التوقف لبرهة نتأمل في سحر هذه الصور البيانية، التي يسردها إلينا أبا الوليد دون تكلف ملحوظ منه، كتنحيف ما هو فخم، أو تفخيم ما هو نحيف في المعنى والمبنى، ما يجعلنا تغوص في الخيال دون عقبات سوء النظم، أو فراغات الغموض التي تدفعنا للنفور من استشعار هذا النوع من الشعر وفنونه.

3/ الإيقاع الموسيقي: يميز الإيقاع الموسيقي عن النثر ويعطيه هالته المرنة عند وقوعه على المسامع، وذلك لأن الشعر يمتلك سمة تدعو القارئ إلى الخيال والتعمق بعيدا عن السطح اللغوي إلى العمق الفني، «فالإيقاع إيقاع ألحان الغناء وهو أن يوقع الألحان ويبينها»[4]، لأن الإيقاع في الشعر يعمل على توازن وتناغم وقع الأصوات والحروف على

[1]. ابن زيدون، الديوان، ص 15.

[2]. المصدر نفسه، ص 17.

[3]. المصدر نفسه، ص 18.

[4]. الفيروز أبادي، قاموس المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1999، ص 127.

أذن السامع في شكل مرتب ومتسلسل يضمن جمال نغمته وطرب مسمعه، حيث يقول ابن سينا في هذا الصدد: «أنه تقدير لزمان النقرات؛ فإن اتفق أن كانت النقرات محدثة للحروف المنتظم منها الكلام، كان الإيقاع شعريا وهو نفسه إيقاع مطلق»[1]، والإيقاع نوعان إيقاع خارجي وإيقاع داخلي:

أ . **لإيقاع الخارجي:** وهو الوزن والقافية؛ أما الوزن فهو مجموع الإيقاعات التي تحدث من خلال التفعيلات عن كتابة البيت الشعري، كتابة عروضية، وقد أعد العرب ما يقارب خمسة عشر بحر لنظم الشعر، وهذا ما أقره العروضي الخليل بن أحمد الفراهيدي من خلال أذنه الموسيقية وما جمعه من أخبار العرب،

فنلاحظ في قصائد ابن زيدون استخدامه لبعض البحور الشعرية لبناء أبياته على نحوها، عند التدقيق أكثر نكتشف أن شاعرنا قد ميل كفة شعره لبعض البحور المعينة، وهذا نجده راجع لعدة أسباب منها؛ أن البحور تختلف تفعيلاتها من بحر لآخر، فمنها ما هو متنوع التفعيلات، ومنها ما هو أحادي التفعيلة، ومنها ما هو قابل للزحافات والعلل، ومنها ما هو العكس، لقد استخدم ابن زيدون إحدى عشر بحر من بحور الشعر العربي وهذا إن دل على شيء فهو يدل بالضرورة على التنوع الشعري والفني الموسيقي، أما من الناحية المعنوي وحين نربطها بالجانب النفسي للشاعر فإننا نجد تنوع في الأحاسيس والعواطف، ومن المؤشرات التي تبين حسن تنسيق الشاعر لفنه مع أحاسيسه المتضاربة وأحواله النفسية المتعددة، لذلك فإن ابن زيدون قد طغى على قصائده بحر الكامل بحيث أن معظم أبياته بناها على وزن هذا البحر، وبالتحديد نجد أن ما يقارب ثمانية وستون وأربعمائة بيت؛ أي ما يساوي ست وعشرون قصيدة قد بناه على نهج الكامل، ومن هذه نذكر بعض الأمثلة[2]:

[1]. ابن سينا، جوامع علم الموسيقى، م: 6، تح: زكريا يوسف، ط 1، نشرة وزارة التربية القاهرة، 1956، ص 81.

[2]. ابن زيدون، الديوان، ص 48.

ما ذنبي أنا؟

إنْ ساء فِعْلُكِ بِي، فَما ذَنبي أنا؟ حسبُ المتيَّمِ أنّهُ قدْ أحسنَا

لم أسلُ حتى كانَ عذرُكِ، في الذي، أبديْتِهِ، أخفَى ، وعذرِيَ أبيَنَا

ولقد شكوتُكِ، بالضّميرِ إلى الهوَى، وَدَعَوْتُ، مِنْ حَنَقٍ، عليكِ فأمّنا

مَنّيتُ نَفسي، من وَفائِكِ، ضَلّة، وَلَقَدْ تَغُرّ المَرْءَ بَارِقَةُ المُنَى

وفي قصيدة أخر أيضا يقول من الكامل في عتاب محبوبته أيضا . ولادة بنت المستكفي . ووصف حبه لها [1]:

من يرحم؟

سَأُحِبُّ أعْدائي لأنّكِ منْهُمُ،، يا مَنْ يُصِحّ، بمُقْلَتَيهِ، وَيُسقِمُ

أصْبحتَ تُسخِطُني، فأمنحُكَ الرّضَى، مَحْضَاً، وَتَظلِمُني، فَلا أتَظَلَّمُ

يَا مَنْ تَآلَفَ لَيلُهُ وَنَهارُهُ، فالحُسنُ بَيْنَهُمَا مُضِيءٌ، مُظْلِمُ

قد كان، في شكوى الصّبابة ِ، راحة، لوْ أنّني أشكو إلى مَنْ يرحَمُ

ومن مجزوء الكامل يقول في مقطع يجيب فيه عن رسالة، كانت قد بعثت إليه من طرف المعتمد بن عباد[2]:

هل يشكرن أبو الوليد، إذ أناءك الأمل البعيد

أو أن تسوغ نعمة، للدهر أسهرت الحسود

إن لم يدن بنصيحة، ترضيك، فهو من اليهود

---

[1]. ابن زيدون، الديوان، ص 49.

[2]. المصدر نفسه، ص 162.

لازلت رافع راية، تضحي السعود لها جنود

لقد كان للكامل حظ في نفس الشاعر، لما كان يتسم به هذا الوزن من التزام في تجسيد الأحاسيس، فقد أحسن له من اسماه بذلك فهو كامل في تصويره، كامل في إحاطته بالحال وتجسيدها، كامل في إخلاصه للشعراء وخاصة من غالبهم شوق الإحساس محبة وألما وبكاءً، كالخنساء وابن الرومي وغيرهما

أما البحر الذي يلى بحر الكامل في مدى كثافته في النتاج الشعري لشاعرنا هو البحر البسيط ونجد فيه نونيته الشهيرة التي تدور حول بعدة واشتياقه لمحبوبته ولادة، والتي يقول فيها . بعض الأبيات منها . [1]:

أضْحَى التّنائي بَديلاً مِنْ تَدانِينَا،وَنَابَ عَنْ طيبِ لُقْيانَا تجافينَا
ألاّ وَقَد حانَ صُبحُ البَينِ، صَبّحَنا حَيْنٌ، فَقَامَ بِنَا للحَيْنِ نَاعِينَا
مَنْ مبلغُ الملبسِينا، بانتزاحِهمُ،حُزْناً، معَ الدهرِ لا يبلى ويُبْلينَا

أن الزمان الذي ما زال يضحكنا، أنسا بقربهم، قد عاد يبكينا

البحر الشعري الثاني الذي نال تركيز بحتري الأندلس في نظمه للشعر هو البحر البسيط حيث قال[2]: **جزاء الوصل بالهجران**

جازيتني عن تمادي الوصل هجرانا، وعن تمادي الأسى والشوق سلوانا

باللَّهِ هَل كانَ قَتلي في الهَوَى خطأً، أم جئتَهُ عامِداً ظلماً وعدوَانَا؟
عهدي كعهدكَ، ما الدّنيا تغيّرُهُ، وَإنْ تَغَيّرَ مِنْكَ العَهْدُ ألْوَانَا
ما صحّ ودّي، إلاّ اعتلّ ودُّكَ لي، وَلا أطَعْتُكَ، إلاّ زِدتَ عِصْيَانَا
يا ألْيَنَ النّاسِ أعْطافاً، وَأفْتَنَهُمْ لَحظاً، وَأعْطَرَ أنْفَاساً وَأرْدَانا

[1]. ابن زيدون، الديوان ، ص 09.
[2]. المصدر نفسه ، ص 52.

حَسُنْتَ خَلقاً فأحسنْ لا تَسؤ خُلُقاً، ما خيرُ ذي الحسنِ إنْ لم يولِ إحسانَا

وفي قصيدة أخرى يقول[1]: **يا حبذا الفأل**

عرفت عرف الصبا إذا هب عاطره، من أفق من أنا في قلبي أشاطره

أراد تجديد ذكراه على شحط، وما تيقن أني الدهر ذاكره

نأى المزار به والدار دانية، يا حبذا الفأل لو صحت زواجره

خلي أبا الجيش هل يقضي اللقاء لنا، فيشتفي منك قلب أنت هاجره؟

قصاره قيصر إن قام مفتخرا، لله أوله مجدا وآخره

أما عن باقي البحور الشعرية التي قد نالت حظ ورودها ضمن ما استعمله ابن زيدون من بحور شعرية فإننا نجد المتقارب، وسمي بذلك لتقارب تفعيلاته وأوتاده حيث ان مفتاح البحر هو عن المتقارب قال الخليل: فعولن فعولن فعولن فعول، الذي شمل ثلاثة وأربعون ومائتان بيت مقسمة على إثنا عشر قصيدة مثل قوله[2]: **سنام من المجد**

هي الشمس، مغربها في الكلل؛ ومطلعها من جيوب الحلل

وغصن، ترتشف ماء الشباب، ثراه الهوى، وجناه الأمل

تهادى لطيفة الوشاح؛ وترنو، ضعيفة كر المقل

وتبرز خلق حجاب العفاف؛ وتسفر تحت نقاب الخجل

[1]. ابن زيدون، الديوان، ص 186.

[2] المصدر نفسه، ص 151 . 152.

كما لا نهمل البحور الشعرية الأخرى التي نالت شرف تواجدها في البعض القليل من قصائد شاعرنا الكريم كبحر الرمل وتفعيلاته هي: رمل الأبحر ترويه الثقات :فاعلاتن فاعلاتن فاعلات، مكررة مرتين

وبحر الوافر وتفعيلاته هي: بحور الشعر وافرها جميل :مفاعلتن مفاعلتن فعولن، مكررة مرتين

وبحر الخفيف بتفعيلاته التي هي: يا خفيفا خفت به الحركات :فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن، مرتين

والسريع: بحر سريع ماله ساحل: مستفعلن مستفعلن فاعلن، مرتين

والرجز: في أبحر الأرجاز بحر يسهل: مستفعلن، مستفعلن، مستفعلن، مرتين

والمنسرح: منسرح فيه يضرب المثل: مستفعلن، مفعولات، مفتعل، مرتين

وأخيرا المجتث بتفعيلاته التي هي: أن جثت الحركات: مستفعلن، فاعلاتن، مرتين

لقد ووفق شاعرنا ابن زيدون في استخدامه لبحر الكامل بتفعيلاته التي هي: متفاعلن مكررة ست مرات ثلاثة منها تكون في الصدر من البيت وثلاثة في عجزه، وقد سمي بالكامل لكمال حركاته «لأن فيه ثلاثين حركة لم تجتمع في غيره من الشعر»[1]، والبسيط الذي تفعيلاته هي: بسيط لديه يبسط الأمل مستفعلن فاعلن مكررة أربع مرات؛ مرتين في الشطر الأول من العجز ومرتين في الثاني، وقد سمي بالبسيط لانبساط أسبابه، وهي أكثر البحور تركيزا في شعره وهما بحران من دائرة المختلف، يسهل نظم ما يحس به

ب . الإيقاع الداخلي: هو الموسيقى الداخلية للنص الشعري والتي تتولد من جراء استخدام الشاعر للكلمات وتنسيقها صوتيا مثلما ينسقها معنويا كذلك، فتحدث في نفس القارئ وقعا من الألحان المتناسقة التي يطرب لها المسمع البشري بطبيعته الغنائية، لذلك

[1]. ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده، ج 1، ص 136.

«علل مؤرخو الأدب كثرة ما روي لنا من أشعار القدماء إذا ما قيس بما روي من نثرهم، بان الشعر تذكره أيسر وأهون، ولعل السر في ذلك ما في الشعر من انسجام في المقاطع وتواليها بحيث تخضه لنظام خاص»[1] فالشعر أسهل في الحفظ والتلقين من النثر.

من الوحدات الفنية التي تساعد الأديب في إبراز الموسيقى الداخلية للعمل الأدبي بأجمل الأصوات والألحان هي: التكرار بنوعيه اللفظي والمعنوي، فنجد التكرار بكثرة في عدة قصائد لابن زيدون منها نونيته نجد فيها : تكرار المعنى في الحزن عن الفراق، وما شابه ذلك من أحاسيس جياشة.

تكرار الشوق: ورد في عدة أبيات وقصائد لابن زيدون وذلك من خلال تشكيله للحقلين المتضادين:

حقل البعد: التنائي، تجافينا، انتزاحهم، تفرقنا، بعدكم، بنتم، بنا، تناجيكم، نأيكم، النأي.

حقل القرب: تدانينا، لقيانا، تلاقينا، تآلفنا، الوصل، اللقاء، نلقاكم، وتلقونا، صلة، ...

كما في الغزل نجد نتفة خمر وورد[2]:

وشادن أسأله قهوة، فجاد بالقهوة والورد

فنت أسقى الراح من ريقه، وأجتني الورد من الخد

كرر فيها القهوة والورد مرتين رغم قلة الأبيات من هذه القصيدة، هياما منه بولادة حيث استعار ارتشاف القهوة وقطف الورود ليعبر عن ملامح وقسمات وجه محبوبته وجمالها من منظوره الشخصي.

التكرار في القصيدة التي وسمها ب: **سلام الوداع**[3]:

ألم ألزم الصبر كيما أخف؟، ألم أكثر الهجر كي لا أمل؟

---

[1]. إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ط 2، 1952 م، ص 10.

[2]. ابن زيدون، الديوان، ص 17.

[3]. المصدر نفسه، ص 23.

ألم أرض منك بغير الرضى؛ وأبدي السرور بما لم أنل؟

ألم أغتفر موبقات الذنوب، عمدا أتيت بها أم زلل؟

معنى التكرار في هذه القصيدة هو عبارة عن أسلوب إنشائي استفهامي غير طلبي غرضه العتاب بالدرجة الأولى؛ لأن الشاعر يعاتب محبوبته لبعدها عنه وجفائها له، كما يتخلل هذا النوع من التكرار معان أخرى كلفت الانتباه. وابن زيدون قد حاول أن يعبر لنا عن مدى شوقه لولادة وعتابه لها عن بعدها عنه وجفائها له من خلال تأكيده في كل موضع لما يقصده من تعبيره المشبع بالشوق والاشتياق لمحبوبته ولادة بنت المستكفي.

أيضا نجد **التصريع** وهو أن يضع الشاعر آخر كلمة من صدر البيت مماثلة لآخر كلمة من عجزه؛ أي القافية، وله نفس وقع السجع في النثر، وهو من الدلائل الدامغة لقدرة الشاعر الأدبية وشعريته، لأبن زيدون عدة مواضع شاء أن يعطيها ميزة التصريع، نذكر منها: **سلام على تلك الميادين**[1]:

تنشق، من عرف الصبا، ما تنشقا، وعاوده ذكر الصبا فتشوقا

وما زال لمع البرق، لما تألقا، يهيب بدمع العين حتى تدفقا

وإن أستطيع صبرا، فمن شيمتي الصبر، وإن يك رزءا ما أصاب الدهر

رمتني الليالي عن قسي النوائب، فما أخطأتني مرسلات المصائب

أقضي نهاري بالأماني الكواذب، وأوي إلى ليل بطيء الكواكب

وهل كبد حرى لبينك تنقع؟، وهل لياليك الحميدة مرجع؟

إذن؛ نلاحظ التصريع في المفردات الآتية: تنشقا / تشوقا. تألقا/ تدفقا. الصبر/ الدهر. النوائب / المصائب. الكواذب / الكواكب . تنقع / ترجع، نفسر سمة التصريع المتكررة عند

[1]. ابن زيدون، الديوان، ص 25.

شاعرنا بقدرته على تطويع الألفاظ من حروف وحركات لموسيقاه الداخلية التي مصدرها ذاتية الشاعر، وتنسيقها مع معانيه لينتج لنا ألطف الأشعار.

الطباق: هو كل لفظتين أو عبارتين في جملة واحدة لهما معان متضادة، ولأن بالمعاني تعرف الأضداد؛ تزاحم معظم الشعراء إن لم يكونوا كلهم على استخدام هذا المحسن البديعي اللين، للطباق نوعين؛ طباق الإيجاب نحو قولنا: نور/ ظلام، وطباق السلب نحو قولنا: نور / لا نور، ولا يخلو شعر بحتري الأندلس من هذه الجمالية، حيث نجدها في عدة مواضع منها:

في النونية[1]: التنائي / التداني . يضحكنا / يبكينا . تفرقنا / تلاقينا . ابتلت / جفت سودا / بيضا . .....

السلام إلى الغرب[2]: الشرق / الغرب.

المعاذير فنون[3]: الشك / اليقين.

راحة وعذاب[4]: راحة / عذاب.

الشوق القاتل[5]: أوفي / ناكث . قاتل / مقتول.

جزاء الوصل بالهجران[6]: الوصل/ الهجران . صح/ اعتل . أطعتك/ عصيانا . خير/ تسؤ.

توحي استخدامات الطباق من طرف شاعرنا في كل مرة . بالإضافة إلى الجمالية والشعرية والبديع اللغوي . بمشاعر الشاعر المتشوقة والمعاتبة والمتأذية من جراء ما تعرض له من هجران حبيبة وشك أصدقائه من الحكام والوزراء واتهامه بالخيانة ورميه في

[1]. ابن زيدون، الديوان ، ص 09 . 10.
[2]. المصدر نفسه، ص 14.
[3]. المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
[4]. المصدر نفسه، ص 31.
[5]. المصدر نفسه، ص 33.
[6]. المصدر نفسه، ص 52.

السجن دون التماس أي أعذار أو أدلة، فالألفاظ التي يركز في استخدامها ابن زيدون ويكثر منها، ومن مرادفاتها تكون كلها تارة عن الحب والاشتياق وتارة عن الوصل والهجران وما بينهما من عذاب الروح والنفس إما عن الوطن أو الحبيبة والخلان، وهذا ما يدل عن نفسية الشاعر المتألمة بعمق.

أما **الجناس:** لم يخلو الشعر الأندلسي من الجناس شأنه شأن باقي العصور العربية للشعر، «والجناس هو اتفاق لفظتين في الحروف واختلافهما في المعنى، والجناس له فائدة كبيرة على السامع لما فيه من استدعاء لميل السامع والإصغاء إليه، لأن النفس تستحسن المكرر من اللفظ مع اختلاف المعنى، ولا تكون مجانسة إلا إذا ساعد اللفظ المعنى ووازى مصنوعه مطبوعه مع مراعاة النظير»[1]، ومن المؤكد أن بحتري الأندلس لم يغفل عن هذا المحسن البديعي في أشعاره، فنجد[2]:

من مبلغ الملبسينا، بانتزاحهم، حزنا، مع الدهر لا يبلى ويبلينا

أن الزمان الذي ما زال يضحكنا، أنسا بقربهم قد عاد يبكينا

وقوله[3]:

ما ضر لو أنك راحم، وعلتي أنت بها عالم

يهنيك، يا سؤلي ويا بغيتي، أنك مما أشتكي سالم

وقوله أيضا[4]:

أجد، ومن أهواه في الحب، عابث، وأوفي له بالعهد، إذ هو ناكث

---

[1]. أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، المكتبة العصرية، 1424هـ . 2003 م، ص 335.

[2]. ابن زيدون، الديوان، ص 09.

[3]. المصدر نفسه، ص 17.

[4]. المصدر نفسه، ص 33.

حبيب نأى عني، مع القرب والأسى، مقيم له، في مضمر القلب، ماكث

إذن الكلمات: يبلينا = يبكينا، عالم = سالم، ماكث = ناكث، وهو ما يسمى الجناس الناقص، حيث يحتوي نتاج ابن زيدون الشعري على العديد من المواضع التي ورد فيها هذا النوع من الإيقاع الموسيقي الذي عادة ما ننجذب إليه بأحاسيسنا الشعرية التي تميز هذا النوع من المحسنات البديعية بمجرد وقعها على مسامعنا، في حين أن شاعرنا استعمل الجناس كجناس عادي لتحسين اللغة الشعرية، واستعمله أيضا لتنسيق قوافيه حروف رويها حسب كل حرف وما يوحي لنا من حالة نفسية، فمنها ما يعبر عن الأسى والحزن، ومنها ما يعبر عن الحب والعشق، ومنها ما نعني بها الاشتياق واللوعة، ومنها ما يوحي بالعتاب واللوم، ومنها ما يدل عن الهجر والبعد والتنائي ...، وابن زيدون أولى عناية كبيرة لهذا الجزء من نظمه وهو اختيار حروف الروي اللينة والشاعرية والمفعمة بالرومانسية والحب وما شابه ذلك من كاهتمامه بالحكام والمح وتبجيل من هم أعلى منه شأنا ومراسلة أصدقائه وخلانه.

ثانيا/ التناص: هو حضور نص ما في نص آخر؛ وذلك بمعنى أن النص الحاضر أمامنا يحمل في طياته ما نقله كاتبه من انطباعات عن نصوص أخرى قد مرت عليه سابقا، واطلع عنها تركت في نفسه الأثر الذي يجعلنا نعلم باطلاعه عن تلك النصوص، و للتناص مؤشرات تدل عليه منها ألفاظ حرفيا أو أفكار بعبارات أخرى، والتناص ظاهرة فنية دالة عن ثقافة الشاعر الواسعة والممتدة في الأدب ونصوصه وفنونه،كما كان النقاد العرب القدامى يطلقون عليه مصطلح السرقات الأدبية، وقد أعدوه مذموما منبوذا منقصا من قيمة الشاعر وشعره، بينما ما بعد ذلك من موجات نقدية عربية وصولا إلى النقد الحديث قد تغيرت نظرة الأدباء والنقاد للتناص كظاهرة أدبية من سلبية إلى إيجابية، وذلك للانفتاح الثقافي والعلمي والأدبي العربي على نظائرهم من الأجانب وخاصة اليونانيين والفرس، والتناص أيضا يعد مؤشر لما يحمله الشاعر من ثقافة عربية متشبعة بالقيم

الأخلاقية القرآنية؛ والتي بدوره يستنبطها من استطلاعه الدائم والمتكرر للكتاب والسنة وإعجابه بهما وانبهاره من بلاغة وجمال لغتهما، فالتناص هو« ترحال للنصوص وتداخل نص في فضاء نص معين تتقاطع وتتنافى ملفوظات عديدة مقتطعة من نصوص أخرى»[1]، كما تجدر الإشارة إلى أن التناص في الأدب أمر لا غنا عنه لأي كاتب أو شاعر على حد سواء لأنها ضرورة أدبية شعرية تشمل كل من الشاعر وعمله الأدبي، وابن زيدون كذلك من الشعراء الذين دخل شعرهم تحت لواء التناص.

1. 4 . التناص المباشر من القرآن الكريم:

إن الدارس المتتبع لظاهرة التناص في شعر الشاعر الأندلسي ابن زيدون، لابد له أن يقف على أول محطة لغوية عربية فنية تأثر بها الشاعر وهي القرآن الكريم، وفي هذا الصدد نجد أنواعا من التناص؛ وأولها التناص المباشر وهو أن يدعو الكاتب أو الشاعر النص القرآني بلفظة أو أية أو حتى عبارة من آية فتحضر في النص حرفيا أي دون زيادة أو نقصان وذلك في قوله في عتابه إلى أبا الوليد ابن جهور من الخفيف[2]:

نار بغي سرى إلى جنة الأمن لظاها فأصبحت كالصريم

هذا القول يتقاطع مع الآية الكريمة: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (19) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾[(*)].

لقد ربط ابن زيدون معنى الآية الكريمة وأحاسيسه بالقهر والعجز إزاء ما حاكوه أعدائه ضده وزجهم به في السجن، وقارن بين ما كان فيه من هدوء وأنس في حياته وكيف تحولت حياته إلى الجحيم والشقاء في السجن، فقابل وقارن بين المعنيين " نار البغي" و"جنة الأمن"؛ إذ ألزم البغي بالنار فحذف المشبه به وهو النار وابقى على لازمة

[1]. محمد ناجي محمد، جيرار جينيت، دار المعارف، بيروت، لبنان، 1992م، ص 46.

[2]. ابن زيدون، الديوان، ص 78.

[(*)]سورة القلم، الآية 19-20.

من لوازمه والإحراق وذلك على سبيل الاستعارة المكنية، كذلك هو الأمر بالنسبة ل"جنة الأمن".

وفي قوله مادحا أبا الحزم ابن جهور صاحب قرطبة[1]:

إلى الله أواب، ولله خائف، وبالله معتد، وفي الله مشتد

استحضر الشاعر في هذا البيت من الآية الكريمة: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۝﴾ (**)، إذن أسقط الشاعر صفة من صفات الأنبياء والمرسلين وهي المفردة القرآنية " أواب" . دون استخدامه لأسلوب التكرار كتكراره للفظة الجلالة "الله" على سبيل المثال على ممدوحه إجلالا له وتعظيما لصفته في جدارته في الحكم والثبات والرجاحة ...، واتخاذه من تقوى الله ذخرا له في التسيير والسلطة إذ أنه أصدر أوامر بإتلاف أوعية الخمور في حكومته.

وفي قوله [2]:

يا جنة الخلد أبدلنا بسدرتها، والكوثر العذب زقوما وغسلينا

رأى ابن زيدون أن حالته عندما خرج من قرطبة الغراء كما يصفها في عدة قصائد له، تشبه حاله سيدنا آدم عليه السلام عندما طرده الله عز وجل من جنته لاقترابه من الشجرة التي منعه سبحانه وتعالى من الاقتراب منها، وقد مثل ذلك بإحساسه بالإحباط نتيجة بعده عن بلده ومحبوبته إلى السجن وظلمته، نفس إحساس النبي أدم عندما نزل من سمو جنة الخلد إلى دنو الأرض المؤقت. وعند قراءتنا لهذا البيت فإننا نجد أكثر من أيه في نفس هذا السياق ومنها: قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (13) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (14) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (15) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى۝﴾ (**)، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ

[1]. ابن زيدون، الديوان، ص 137.

(*)سورة ص، الآية: 30.

[2]. ابن زيدون، الديوان، ص 11.

(**)سورة النجم، الآية 12 . 13.

الْمُكَذِّبُونَ (51) لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (52) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ [*]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (64) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [**]، أما في التناص غير المباشر فإننا نقف عل البيت الذي يقول فيه[1]:

وها هو منقاد لحكمك فاحتكم، لتبلغ ما تهوى ومره ليصدعا

حيث أن شاعرنا في هذا البيت يمدح المعتضد تقربا منه وكسبا لوده، بتذكيره بقدرته وصلاحياته في الحكم وأن كل أوامره مطاعة بمجرد إصدارها من طرفه، وهذا ما يتقاطع مع معنى الآية الكريمة: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (94) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾[***]؛ إذا ابن زيدون بخبرته الشعرية استضاف لفظة فأصدع قوة للمعنى وإبرازا لجماله وبيانا لحبه وتبجيله للمعتضد ابن عباد وجدارته بالحكم، مثل ما أعطى الله عز وجل لخاتم أنبيائه الكريم محمد ﷺ، من صلاحيات تخول له نشر الدين الإسلامي الحنيف برعاية الله وحفظه.

أ . تناص معاني و صور:

صور لنا بحتري الأندلس بعضا من المعاني في أشعاره، ووجد في الآيات القرآنية ما يتقاطع مع تلك المعاني من صور تدل على الإعجاز القرآني، ونجد هذا النوع من التناص في قول الشاعر في قصيدة رثا بها أم المعتضد بالله بن عباد من بحر الطويل[2] :

خفضت جناح الذل في العز رحمة، لها، وعزيز إن تدل وتخضعا

---

[*] سورة الواقعة، الآية، 51 . 53.

[**] سورة الصافات، الآية، 64 . 65.

[1] . ابن زيدون، الديوان، ص141.

[***] سورة الحجر، الآية 94 . 95.

[2]. ابن زيدون، الديوان، ص 141.

فقد عرف المعتضد بن عباد ببره لوالدته وإحسانه لها، وهذا ما تنص عليه الآية الكريمة في قوله جل وعلا: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ۝﴾(*)؛ في هذه الآية شبه الله عز وجل الذل بالطائر فحذف المشبه به وهو الطائر وأبقى على لازمة من لوازمه وهي الجناح على وجه الاستعارة المكنية، حيث أن ابن زيدون قد عبر عن انبهاره وإعجابه بالإعجاز الإلهي للقرآن الكريم كشاعر مسلم باستدعاء بعضا من النفحات منه في أشعاره للاستفادة من بلاغتها في توضيح المعنى المراد إيصاله وهو في هذا الموضع مدى حب وإخلاص المعتضد لأمه في حياتها وحتى بعد مماتها، أيضا في أشهر قصيدة نظمها ابن زيدون وهي النونية يقول[1]:

وإذ هصرنا فنون الوصل دانية، قطافها، فجنينا منه ما شينا

ليسق عهدكم، عهد السرور، فما كنتم لأرواحنا إلا رياحينا

في البيت الأول نجد حضور للآية الكريمة: ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝﴾(**)، أما في البيت الثاني فقد استدعى الآية الكريمة: ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (88) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ۝﴾(***)؛ لقد ووفق ابن زيدون كثيرا في هذا النوع من التناص، وبرع في الإسقاط الصوري للمعاني والتشبيهات وذلك لأنه ربط بين مواصفات جنة الخلد من سمو ونعيم وبين ما يتعطش له من نعيم قربه من محبوبته ولادة بنت المستكفي وشوقه للقائه بها ورؤيتها بجانبه،

(*)سورة الإسراء: الآية:24.

1. ابن زيدون، الديوان، ص 10.

(**)سورة الحاقة، الآية: 22 . 23.

(***)سورة الواقعة، الآية: 88 . 89.

ب . التناص القصصي: إن ابن زيدون قد أجاد كعادته؛ وذلك حين نتأمل هذا المقطع . الذي هو من لامية بعث بها لأبي الحزم ابن جهور. والتي يقول فيها[1]:

أمقتولة الأجفان مالك وألها، ألم ترك الأيام نجما هوى قبلي

أقلي بكاءً لست أول حرة، طوت بالأسى كشحا على مضض الثكل

وفي أم موسى عبرة إذ رمت به، إلى اليم في التابوت فاعتبري واسلي

أذن يخاطب شاعرنا الكريم في هذه الأبيات أمه؛ حيث أنها فجعت من خبر سجنه وخافت عليه كثيرا وأذرفت دموع الحزن والحسرة والاشتياق، فهو ولدها الوحيد وقرة عينيها، وابن زيدون بطبيعة الحال أعلم الناس بوالدته وطباعها وأحاسيسها لذلك فقد حاول أن يقارن موقفها هذا والتي لا تحسد عليه بموقف مشابه له في قصص القرآن الكريم وهو موقف أم سيدنا النبي موسى عليه السلام . كليم الله . حين خافت عليه من الطاغوت فرعون وأتباعه أن يقتلوه، فأوحى ربها أن تضعه في اليم في رعاية الله ﷻ، وهذا ما جاء في الآية الكريمة: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝﴾ (*)، فهو. الشاعر . يدعو والدته إلى التجلد اعتبارا من أم موسى عليه السلام لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا.

وحين ندقق أكثر في شعر ابن زيدون فإننا نتفطن لأنه قد تناص من آيات سورة الأنبياء التي تصف بالتحديد وهي الآية التي جاء فيها قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ۝﴾ (**)، فابن زيدون قد استلهم من هذه القصة القرآنية المثالية عن

[1]. ابن زيدون، الديوان، ص 101.

(*)سورة القصص، الآية: 8.

(**) سورة الأنبياء، الآية: 69.

التشبث بالدين عبر القرون والعصور دون كلل أو تراجع أو تردد ليصور لنا مشهد أسطوري وخرافي يطلق عليه في الدين الإسلامي بالمعجزة للأنبياء، حيث يقول[1]:

بأبي أنت إن تشأ تلك بردا، وسلاما كنار إبراهيم

كما لا يفوت ابن زيدون . كشاعر بارع ومجيد . التناص من القصة القرآنية التي تشابه كثيرا ما عاشه هذا الشاعر من ظلم وتعسف حين زج به للسجن برغبة من أعدائه الذين وشوا به لبني جهور واتهموه بما لم يقدم على فعله فهو يقول [2]:

كان الوشاة وقد منيت بإفكهم، أسبط يعقوب وكنت الذيبا؟

وهذا ما يتقاطع معناه وبجدارة واستحقاق مع معنى الآية التي يقول فيها . الله عز وجل: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾(*) فقد أعطى ابن زيدون هنا الذين وشوا به موقع إخوة يوسف من القصة ووضع نفسه مكان الذئب الذي رموه بما لم يفعله وهو افتراس النبي يوسف عليه السلام وهو بريء مما رموه به شأنه شأن شاعرنا المظلوم.

وكنتيجة تجدر الإشارة إلى ان ابن زيدون لم يتخذ من التناص القرآني كأدوات زينة براقة يجذب بها الانتباه من المتلقين بصفة شاملة، بل هو ضرب من ضروب الصناعة والإتقان في فنون الشعر واللغة حيث يقول الجاحظ: «الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير»[3]، وابن زيدون قد توخي معاني النحو وأعطى لكل مقام مقال من المعاني والصور والأخيلة مما زاد لغته الخطابية بلاغة وتماسك وجودة شعرية، قد تفانى ابن زيدون في جعلنا تلمس ونحس ونتأمل مدى تأثره بالقرآن معنا ومبنا.

---

[1]. ابن زيدون، الديوان، ص 75.

[2]. المصدر نفسه، ص 83.

(*)سورة يوسف، الآية: 17.

[3]. أبو عثمان الجاحظ، الحيوان، تح: محمد عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1988، ج: 1، ص 444.

4 .2 . التناص من الأقوال المأثورة و الأشعار:

أ . من الأقوال المأثورة:

كما هو معروف عن ابن زيدون أنه نشأ وكبر في أسرة علم ودين وخلق، فكانت ثقافته الواسعة تنم عن أي طبقة علمية وأدبية قد عاش فيها بحتري الأندلس، ومما جاء في أشعاره من تأثر بكلام العرب ومعانيه الخالدة؛ كتوظيفه لمقولة امرئ القيس اليوم خمر وغدا أمر في قوله[1]:

ففي يومنا أمر وفي غده أمر، وإن يك زراءً ما أصاب به الدهر

وفي قصيدة أخرى اقتبس المثل الشهير" سبق السيف العذل" فقال[2]:

لا يزل من حاسديه مكثر، أو مقل سبق السيف العذل

وهذا المثل قاله ضبة بن أد لما لامه الناس على قتله قاتل ابنه في الحرم[3]، وقول ابن زيدون[4]:

شد في حلبة البلاغة حتى، بان فيها عن شأو "سهل" و" عمرو"

وهو أراد بسهل؛ سهل بن هارون الكاتب العباسي البليغ المشهور، وعمرو هو الجاحظ شيخ كتاب العربية، ويقول أيضا في إحدى أراجيزه[5]:

مشرقا قد سئم التغريبا، أما سمعت المثل المضروبا،

أرسل حكيما واستشر لبيبا، إذا أردت الوطن الحبيبا

---

[1]. ابن زيدون، الديوان، ص 25.

[2]. المصدر نفسه، ص 80.

[3]. أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني، تح: جان عبد الله توما، دار صادر، بيروت، ط 1، 2002 م، ج 2، ص 121.

[4]. ابن زيدون، الديوان، ص 131.

[5]. المصدر نفسه، ص 13.

وفي عجز هذا البيت هذا تناص مع مثالين مشهورين: و" أرسل حكيما ولا توصه"[1] والمثل الثاني: " لا تستشر إلا الناصح اللبيب"[2] وقوله[3]:

سأبكي على حظي لديك، كما بكى "ربيعة" لما ضل عنه "ذؤاب"

وهذا ما يتناص مع قصة ذؤاب بن ربيعة الذي قتل عتيبة بن الحارث اليربوعي في إحدى الحروب، ثم أسر الربيع عتيبة اليربوعي دؤاب دون أن يعرف أنه قاتل أبيه، فأتاه ربيعة (أبو دؤاب) فافتداه بفدية يوفيها في سوق عكاظ، فلما دخلت الأشهر الحرم وأتى ربيعة الموسم تخلف الربيع لعذر قاهر، ظن ربيعة أن الربيع عرف شخصية أسيره وقتله، فرثاه بأبيات منها:

أذؤاب إني لم أهبك ولم أقم، للبيع عند تحضر الأجلاب

إن يقتلوك فقد ثللت عروشهم، بعتيبة بن الحارث بن شهاب

بأشدهم كلبا على أدائهم، وأعزهم فقدا على الأصحاب

وسارت هذه الأبيات عنه فبلعت بني يربوع، فعلموا شخصية أسيرهم فقتلوه، فظل أبوه يبكيه ويندبه، وبخاصة بعد أن علم أنه سبب مصرعه[4]، والبيت الصريح الذي قاله ابن زيدون عن الحكمة والذي جاء فيه[5]:

فوعى الحكمة من قائلهم: الزم الصحة يلزمك العمل

---

[1]. ينظر: الهاشمي، الأمثال، دار سعد الدين دمشق، ط1، 1423، ص 37.

[2]. ينظر: الزمخشري، المستقصي في الأمثال، تح و شر: كارين صادر، دار صادر، بيروت، ط1،1432 هـ 2011 م، ج 2، ص 76.

[3]. ابن زيدون، الديوان، ص 76.

[4]. ينظر: أبي علي القالي، الأمالي، تح: عبد الجواد الأصمعي، دار الكتب المصرية، ط 2، 1962 م، ج: 2، ص 72.

[5]. ابن زيدون، الديوان، ص 80.

وهي حكمة اقتبسها من توقيع من توقيعات طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين، أمير خرسان(م:284هـ)[1]، وقوله أيضا في بيت آخر[2]:

فتجامدت محتالة، والمرء يعجز لا الحويل

وهو قد أخذ مقولة الأكثم بن صيفي: "المرء يعجز لا المحالة"؛ وهذا ما يعني أنه يأتي الجهل من الناس فأما العلم والحيل فكثيرة[3]، وبهذا فإن الشاعر الأندلسي ابن زيدون ذا كفاءة عالية وزاد لغوي وافر وعميق، مما يعلل مرونة أسلوبه في توظيف الأمثال والحكم من عصور متعددة ومواقف مختلفة، ومعاني متباينة بقصص متنوعة، بحذر من الحوشي والوحشي من الألفاظ التي يوردها داخل أشعاره، وهذا ما يسمى بالحذاقة الأدبية.

ب . من الأشعار:

أما عن تأثر ابن زيدون بالشعراء سابقيه فإن إنتاجه الشعري لا يخلو مما يدل على ذلك، فقد أشرنا فيما سبق إلى أن ابن زيدون كان واسع الاطلاع والمعارف والذكاء، ما مكنه من الاطلاع على ما جاء به غيره من الشعراء والكتاب، والعلماء وحتى فقهاء اللغة والدين، ومن ذلك فإننا نرى عدة مواضع فيها ما يسمى بالتعالق النصي بين أشعار ابن زيدون وغيرها من أشعار لشعراء متقدمين عنه في الزمن، ومن هده المواضع نذكر:

نلاحظ في بيت ابن زيدون الذي يقول فيه[4]:

أقضي نهاري بالأماني الكواذب، وآوي إلى ليل بطيء الكواكب

---

[1]. ينظر: أبي منصور الثعالبي، الإعجاز و الإيجاز، تح: إبراهيم صالح، دار البشائر، دمشق، ط 2، 2004م، ص 88.

[2]. ابن زيدون، الديوان، ص 176.

[3]. ينظر: أبو عبيد القاسم بن سلام، الأمثال، تح: عبد المجيد قطامش، دار المأمون للتراث، دمشق، ط 1، 1980م، ص 204

[4]. ابن زيدون، الديوان، ص 25.

تناص مع مطلع قصيدة النابغة[1]:

كليني لهم يا أميمة ناصب، وليل أقاسيه بطيء الكواكب

وفي قول آخر لشاعرنا[2]:

ومحاسن تندى رقائق ذكرها، فتكاد توهمك المديح نسيبا

وهذا ما يتقاطع مع قول أبو تمام[3]:

طالبا فيك المديح والتذ حتى، فاق وصف الديار والتشبيبا

ونجده أيضا يتناص مع قول البحتري[4]:

متى أرت الدنيا نباهة خامل، فلا تنتظر إلا خمول نبيه

وهذا نلاحظه عندما قال[5]:

وكذا الدهر إذا ما، عز ناس ذل ناس

ويتداخل أيضا مع بيت المتنبي الذي يقول فيه[6]:

وما قتل الأحرار كالعفو عنهم، ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا

عندما قال[7]:

إذا عثر الجاني عفا عفو حافظ، بنعمى لها في المذنبين ذناب

---

[1]. النابغة الذبياني، الديوان، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط 2، ص 40.

[2]. ابن زيدون، الديوان، ص 83.

[3]. التبريزي، شرح ديوان ابي تمام، تح: راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، بيروت، 2007 م، ج: 2، ص 136.

[4]. أبي عبادة البحتري، الديوان، دار صادر، بيروت، ج: 1، ص 267.

[5]. ابن زيدون، الديوان، ص 37.

[6]. المتنبي، الديوان، تح: يوسف الشيخ البقاعي، دار الكتاب العربي، بيروت، 2009 م، ص 249

[7]. ابن زيدون، الديوان، ص 73.

ويقول ابن زيدون في موضوع آخر:

ولم تأله بقيا عيله تنظرا، لفيئته من أكرمته فتمردا[1]

وهو مأخوذ عن قول المتنبي الشهير[2]:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته، وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

وقد اقتبس ابن زيدون عجز العباس ابن الأحنف الذي يقول فيه[3]:

بيس يومي فبواحد من ظلوم، وابتلائي من حادث وقديم

ثم نجده يقتبس قول الشاعر ابن هانئ الأندلسي[4]:

ففي ناظري عن سواكم عمى، وفي أذني عن سواكم صمم

نلاحظ أن ابن زيدون قد غير في حشو البيت ويبقيه على نفس الوزن والقافية ويعيد وضعه على النحو الآتي[5]:

ففي ناظري عن رشاد عمى، وفي أذني عن ملام صمم

من خلال ما سبق من تسليطنا للضوء على مواقع التداخل النصي لنصوص ابن زيدون فإننا نرى أن:

ابن زيدون أولا وأخيرا من الشعراء العرب المسلمين الذين ينضحون بثقافتهم الدينية المشبعة بما جاء في الفرقان والحديث النبوي الشريف، كما فقه ابن زيدون اللغة وعلومها المتعددة، التي نراها بوضوح في نتاجه الشعري وذلك في حسن استخدامه للآيات القرآنية

[1]. ابن زيدون، الديوان، ص 149.

[2]. المصدر نفسه، ص 72.

[3]. العباس بن الأحنف، الديوان، تح: عاتكة الخزرجي، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1954 م، ص 249.

[4]. ابن هانئ الأندلسي، الديوان، شرح أنطوان نعيم، دار الجيل، ط 1، 1996 م، ص 360.

[5]. ابن زيدون، الديوان، ص 105.

والتعامل مع معانيها وبلاغتها بحنكة بما يزيد من سمو وبلاغة نتاجه الأدبي، وسعى شاعرنا أيضا إلى الموازاة بين ما اطلع عليه من نصوص شعرية أو نثرية لسابقيه من أمثاله المبدعين، وبين ما جادت به قريحته من أفكار وأخيلة ومعان، وهذا ما تجسد لنا في ثنايا قصائد ابن زيدون وقد حققت قصائده نسبة التلقي المرجوة، وحتى أكثر من ذلك فهناك من تأثر به من الشعراء المتأخرين عن عصره، وأمثالهم أمير الشعراء في العصر الحديث أحمد شوقي، بذلك فإننا نلاحظ أنه قد انظم إلى دوامة التناص وأصبح جزءا منها بتأثره وتأثيره بها.

خاتمة

بعد رحلة البحث والدراسة ها نحن نصل نقطة رصد النتائج المتحصل عليها، بعد التعرف عن المسببات الشعرية المتنوعة عند الشاعر ابن زيدون، بتسليط الضوء عن عديد المظاهر النفسية التي برزت في شعره باستنطاق أدواتها، واستفزت مجهوداتنا للكشف عنها وفهمها شكلا ومضمونا بإعادتها إلى مرجعياتها وتتلخص هاته النتائج كالآتي :

- حاولنا في هذا البحث أن نحيط بآليات القراءة النفسية وأدواتها ومقوماتها، ولنا ان نقر في هذا الموضع بصعوبة الإحاطة بجميع تلك الأدوات والتحكم في نتائج استنطاقها، واكتشاف أس مرجعياتها، غير أنني حاولت جهدي في تقديم ذلك والله المستعان.

- التحليل النفسي ليس درسا لغويا بل إن فهم النصوص وفق منظوره يدفع إلى استكشاف غوائر الموضوعات واستكشاف ما لم يستكشف بعد، أي إعادة إنتاج المعارف برؤية تبحر بين الجزئيات اللغوية والدوافع النفسية سواءً المعلنة أو اللاشعورية.

- القراءة النفسية قراءة تفسيرية للأحداث بمنطلق تفسير أسبابها بما يبث في القصيدة حياة تتجاوز الرغبة في اكتشاف أسباب القول إلى استكشاف ما قاله النص وما لم يقله كذلك؛ أي إعادة اكتشاف النص في كل قراءة.

- ان تحليل نصوص ابن زيدون الشعرية وخاصة في غزلياته تعيدنا إلى رحاب العلاقة التي كانت بين الشاعر والشعر حين كان يمثل طبيعة شخصيته الحقيقية فالشاعر يضعنا أمام حبه الحقيقي والوحيد وهو يُسحب من بين يديه ورغم ذلك تبدو شخصيته المتزنة المتماسكة التي تحارب من أجل حبها دون إيهام السامع بالانهيار، مهما عظم الخطب.

- ابن زيدون شاعر عانى الخيانة والخذلان والسجن والتهميش من طرف أصدقائه وأقربائه ومحبوبته، مما أقحمه في حالة مضطربة من المشاعر المتعددة والمتباينة.

- تضمنت قصائد ابن زيدون تنوعا شاملا لكل المواضيع التي اشتهرت بها القرائح الأندلسية كوصف الطبيعة والرومنسية والوجدانيات مع حضور المرأة بصورها الشعرية المتعددة.

- أحب ابن زيدون ولادة بنت المستكفي في شعره وعاتبها وتغزل بها وحاسبها، ولامها وعزلها عن شوقه وحنينه لها ولقربها وأهم ما أثبت لنا عتابه لها هي نونيته الشهيرة.

- أظهر ابن زيدون مدحه لبني جهور، وغيرهم من ملوك عصر الطوائف لكنه احتفظ بهالته النرجسية التي لم يتخلى بها عنها في ثنايا شعره.

- ينتقل بحتري الأندلس في شعره بين نفسيات ومشاعر متنوعة ومتعددة، حسب مواضعه وظروفه التي مر بها من سجن في غير موطنه، وأيضا عندما هجرته ولادة وتجاهلها له لتستقر في النهاية مع صديقه، وخيبته من صداقته مع بني جهور، فقدانه الأمل عندما صدقوا ما نسب إليه من تهم وزجه السجن.

- زخرت قصائد ابن زيدون بعدة مظاهر جمالية انتهت بنا لغاية بحثنا وراء روعتها من أبعاد نفسية للشاعر الأندلسي أبو الوليد ابن زيدون.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم: برواية حفص عن عاصم.

أولا: قائمة المصادر

1. أوس ابن حجر، الديوان، تح: محمد يوسف، دار صادر، بيروت، لبنان، ط 03، 1979.
2. الخنساء، الديوان، شرح: حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت، ط02، 2004.
3. أبو الطيب المتنبي، الديوان، شرح: أبي البقاء العبكري، تح: مصطفى السقا و إبراهيم الأبياري، دارالمعرفة، بيروت، 1978.
4. أبو الطيب المتنبي، الديوان، تح:يوسف الشيخ البقاعي، دار الكتب بيروت، 2009.
5. ابن زيدون، الديوان، شرح: إبراهيم شمس الدين، محمد االفاضلي، دار الأداب، الجزائر، ط 01، 2009.
6. النابغة الذبياني، الديوان، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف،
7. أبي عبادة البحتري، الديوان، دار صادر، بيروت، ج: 01،
8. العباس ابن الأحنف، الديوان، تح: عاتكة الخزرجي، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1954.
9. ابن هانئ الأندلسي، الديوان، شرح: أنطوان نعيم، دار الجيل، 1996.

ثانيا/ قائمة المراجع:

أ- كتب قديمة:

1. ابن رشيق القيرواني المسيلي، العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده، تح: محمد محي الدين عبد الحميد،دار الجيل، ج:01.
2. حازم القرطاجني، منهاج البلغاء و سراج الأدباء، دار الغرب، بيروت، ط 02، 1981.
3. الجاحظ: أبو عمرو عثمان ابن بحر، البيان و التبيين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1968.

4. أبو هلال العسكري، الصناعتين: الشعر و الكتابة، تح: محمد بجاوي، مطبعة عيسى الحلبي، مصر، 1981.
5. ابن قتيبة، الشعر و الشعراء، دار الثقافة، بيروت، ج: 01.
6. عبد القاهر الجرجاني، الطرائف الأدبية، شرح: عبد العزيز الميمني، لجنة التأليف الترجمة، القاهرة، 1928.
7. ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق: 01، م: 01، لجنة التأليف و الترجمة و النشر، القاهرة، 1939.
8. الضبى: أحمد ابن يحي، بغية الملتمس، مطبعة روخس، مدريد، اسبانيا، 1884، ج03.
9. ابن سينا، جوامع علم الموسيقى، م: 06، تح: زكريا يوسف، ط: 01، نشرة وزارة التربية، القاهرة، 1956.
10. الجاحظ: أبو عثمان عمرو ابن بحر، الحيوان، تح: محمد عبد السلام، هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان،1988، ج:01.
11. أبي الفضل أحمد بن محمد الميداني، مجمع الأمثال، تح، دار صادر، بيروت، ط:01، 2002، ج: 02.
12. الهاشمي، الأمثال، دار سعد الدين، دمشق، ط:01، 1423 هـ / 2002م.
13. الزمخشري، المستقصي في الأمثال، تح: كارين صادر، دار صادر بيروت، بيروت، ط:01، 2011م - 1432هـ، ج:02.
14. أبي علي القالي، الأمالي، تح: عبد الجواد الأصمعي، دار الكتب المصرية، ط: 02، 1962 م، ج: 02.
15. أبي المنصور الثعالبي، الإعجاز و الإيجاز، تح: إبراهيم صالح،دار البشائر، دمشق، ط: 02، 2004.
16. أبو عبيد القاسم ابن سلام، الأمثال، تح، عبد المجيد، قطامش، دار المأمون للتراث، دمشق، ط: 01، 1980.

17. التبريزي، شرح ديوان أبي تمام، تح: راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، بيروت،2007م، ج: 02.
18. الباقلاني: أبو بكر محمد الطيب، ت: 404 م، إعجاز القرآن، تح، أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، 1954 م.

ب ـ كتب حديثة:

1. محمد النويهي، نفسية أبو نواس، دار الفكر، بيروت، ط 02، 1980.
2. فوزي خضر، عناصر الإبداع الفني في شعر ابن زيدون، الكويت، ط 01، 2004.
3. عبد اللطيف شرارة، أبو الوليد ابن زيدون، دراسة و مختارات، دار الكتاب العالمي، بيروت، لبنان، ط 01، 1988.
4. عماد حاتم، أساطير اليونان، دار الشرق العربي، 2008، ط 03.
5. غازي ظليمات و عرفان الأشقر، الأدب الجاهلي: قضاياه ـ أغراضه ـ أعلامه ـ فنونه، دار الإرشاد، حمص، سوريا، ط 01، 1992.
6. كامل حسن البصير، بناء الفنية في البيان العربي، المجمع العربي، المجمع العلمي، بغداد،1987.
7. إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلومصرية، القاهرة، ط 02، 1952.
8. أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، المكتبة العصرية، 2003.
9. أحمد عزت راجح، أصول علم النفس، دار الكتاب العربي للطباعة و النشر، القاهرة، ط 07، 1928.
10. صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر و مصطلحاته، دار ميريت، القاهرة، مصر، ط 01، 2002.
11. عبد القادر فيدوح، الإتجاه النفسي في نقد الشعر العربي ـ دراسة ـ دار صفاء للنشر و التوزيع، عمان، الأردن، ط 01، 1998.
12. علي الجندي، عيون الشعر العربي القديم، دار غريب، مصر، 2000.

13.الزوزني، شرح المعلقات، تح: محمد البجاوي، مصر، 1981.

14.عز الدين إسماعيل، التفسير النفسي للأدب، دار غريب، القاهرة.

15.عباس محمود العقاد، أبو نواس: الحسن ابن هانئ، منشورات الكتب العصرية بيروت.

جـ - المعاجم و القواميس:

1. ابن منظور: ، لسان العرب، م: 06، ج: 05، دار صادر بيروت، لبنان.
2. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، الإدارة العامة، للمجمعات و إحياء التراث، ط 01، 2003.
3. علي بن محمد الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، تح: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، مصر.
4. محمد بن أبي بكر عبد القاهر الجرجاني، مختار الصحاح، دالر الكتاب، الكويت، ط 01، 1994.
5. الفيروز أبادي، قاموس المحيط، ط 01، دار الكتب العلمية، بيروت 1999.

د - المراجع المترجمة:

1.رينيه ويلك و أوستن وارين، نظرية الأدب، تر: أحمد بو حسن، دار الأمان، المغرب، ط 01، 2004.

هـ - المواقع:

1.سنان الساعدي، / https: / m. Facebook. com//، ص 02.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
شكر وعرفان	
مقدمة	أ- ج
المدخل: تحديد مصطلحي:النفس وتجلياتها	05
أولا/ تعريف كلمة نفس لغة واصطلاحا	06
أ . لفظة نفس لغة	06
ب . لفظة نفس اصطلاحا.	06
ثانيا/أبرز العوامل الفاعلة في تقديم الشاعر لأشعاره	09
الفصل الأول: أهم النفسيات الفاعلة في قصائد ابن زيدون	19
تمهيد	20
أولا/ الشوق والحنين والعتاب	21
ثانيا/ السجينات	31
ثالثا/ التهديد	33
رابعا/ الغزل	36
خامسا/ المدح	41
الفصل الثاني: آليات التشكيل الفني في شعر ابن زيدون	46
تمهيد	47

أولا/ الصورة الشعرية.	47
1/ التشبيه	48
2/ الاستعارة	50
3/ الإيقاع الموسيقي	51
أ . الإيقاع الخارجي	52
ب . الإيقاع الداخلي	56
ثانيا/ التناص	61
4 .1. تناص مباشر من القرآن الكريم	62
أ . تناص معاني و صور	65
ب . تناص قصصي	66
4 .2 . التناص من الأقوال المأثورة والأشعار	68
أ . من الأقوال المأثورة	68
ب . من الأشعار	70
خاتمة	74
قائمة المصادر والمراجع	77
الفهرس	82